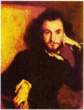
شارل بودلير

سأمُ باريس

قصائد نثر



ترجمة: بشير السباعي

آفاق للنشر والتوزيع

منشورات الجمل

شعر

شارل بودلیر: سأم باریس

شارل بودلير

سأمُ باريس

قصائد نثر

ترجمة
بشير السباعي

منشورات الجمل

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

CFCC

Liberté • Égalité • Fraternité
RÉPUBLIQUE FRANÇAISE
AMBASSADE DE FRANCE
EN RÉPUBLIQUE ARABE
D'ÉGYPTE

ولد شارل **بودلير** عام ١٨٢١ بباريس وتوفي عام ١٨٦٧ فيها. شاعر وناقد ومترجم فرنسي شكلت أعماله الشعرية والنقدية علامة فارقة في الأدب الأوروبي الحديث. اكتشف أعمال الكاتب الأمريكي **إدغار آلان بو** وترجم له بعض قصصه إلى الفرنسية. تعرّض ديوانه الأساسي **أزهار الشر** إلى المصادرة وحوكم بسببه وغُرِّم. نجح **بودلير** في نشر القليل من كتبه خلال حياته، لكنها نُشرت كاملة بعد وفاته وتقع في ٧ مجلدات. من أهم مؤلفاته: **أزهار الشر** (١٨٥٧)؛ **الفراديس الإصطناعية** (١٨٦٠). صدر له عن منشورات الجمل: **اليوميات**، ترجمة: آدم فتحي (١٩٩٩).

ولد **بشير السباعي** عام ١٩٤٤ بالشرقية/ مصر. كاتب ومترجم نشر العديد من الترجمات الأدبية والفكرية. صدر له عن منشورات الجمل: **جويس منصور: إفتح أبواب الليل**، مختارات شعرية (١٩٩٨)؛ **جورج حنين: أعمال مختارة** (١٩٩٦).

شارل بودلير: سأمُ باريس، قصائد نثر

ترجمة: **بشير السباعي**

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

75 شارع القصر العيني ـ أمام دار الحكمة ـ القاهرة ـ مصر، تليفاكس: 002027953811

Email: afaqbooks@yahoo.com

Charles Baudelaire: Petits Poemes en Prose (Le Spleen de Paris1869)

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

E-Mail: KAlmaaly@aol.com

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع

المركز الفرنسي للثقافة والتعاون العلمي قسم الترجمة التابع لسفارة فرنسا بجمهورية مصر العربية

في إطار مشروع دعم النشر «طه حسين» التابع لوزارة الشؤون الخارجية الفرنسية

إلى آرسين هوسيه

صديقي العزيز، أبعث إليك بعمل صغير لن يكون بالإمكان وصفه، دون إجحاف، بأنه لا ذيل له ولا رأس، فكل شيء فيه، على النقيض من ذلك، رأس وذيل في آن، بشكل تناوبي وتبادلي. وأرجو أن تأخذ في اعتبارك الراحة الرائعة التي يوفرها هذا الترتيب لنا، للجميع، لك ولي وللقارئ. ذلك أن بوسعنا أن نقطع حيثما شئنا، أنا، أحلام يقظتي وهواجسي، وأنت، المخطوط، والقارئ، قراءته. فأنا لا أعلق رغبة القارئ الجامحة بخيط حيلة نافلة لا نهاية له. حاول نزع فقرة وسوف تعاود قطعتا هذا الخيال الأفعواني الالتحام دون صعوبة. مزقه شذر مذر إلى قطع عديدة، وسوف ترى أن بوسع كل قطعة أن تواصل الحياة مستقلةً. وعلى أمل أن بعض هذه القطع سوف تكون مفعمة بالحياة بحيث ترضيك وتعود عليك بالمتعة، فإنني أتجاسر على تقديم الثعبان كله هدية لك.

عندي اعتراف بسيط أود الإفضاء به إليك. خلال تصفحي

للمرة العشرين على الأقل كتاب ألويزيوس برتران جاسبار الليل الشهير (ألا يملك كتاب معروف لك ولي ولبعض أصدقائنا كل الحق في أن يعد شهيراً؟) خطر ببالي أن أحاول عمل شيء مماثل وأن أطبق على تصوير الحياة الحديثة، أو بالأحرى حياة حديثة وأكثر تجريداً، النهج الذي طبقه على رسم الحياة القديمة، الأخاذة بشكل مفرط الغرابة.

من منا الذي لم يحلم، في أيام طموحه، بمعجزة نثرٍ شعري، موسيقي دون وزن ودون قافية، بالغ السلاسة والمرونة بحيث يمكنه التكيّف مع الحركات الغنائية للروح ومع تموجات الهواجس وانتفاضات الوجدان؟

هذا المثل الأعلى الآسر الملحّ إنما يولد خاصة من ارتياد المدن الضخمة. من تقاطع علاقاتها التي تفوق الحصر. أنت نفسك، صديقي العزيز، ألم تحاول أن تترجم إلى أغنية صيحة بائع الزجاج الصارة، وأن تعبر في نثر غنائي عن شتى الإيحاءات المحزنة التي ترسلها هذه الصيحة إلى جميع الطوابق العليا، مخترقةً أعلى ضبابات الشارع؟

لكنني، والحق يقال، أخشى من ألاّ تكون غيرتي قد عادت عليّ بالمسرة. فما أن بدأتُ العمل حتى أحسستُ ليس فقط أنني مازلت بعيداً جداً عن نموذجي الرائع المحاط بالأسرار، بل أنني أجترح شيئاً (إن جازت تسمية هذا شيئاً) مختلفاً اختلافاً

فريداً، حادثاً لامراء في أن جميع من عداي يمكنهم الاختيال به، وإن كان لا يمكنه إلاّ أن يبكت تبكيتاً عميقاً روحاً ترى أن أعظم شرف للشاعر هو أن ينجز تحديداً الصنيع الذي اعتزم القيام به.

مع وافر محبتي

ش. ب.

I

الغريب

ـ أنت أيها الإنسان المحيِّرُ المحاط بالأسرار، من تؤثِرُ بحبك؟ أباك، أمك، أختك أم أخاك؟

ـ أنا لا أب لي، لا أم، لا أخت، لا أخ.

ـ أصدقاءك؟

ـ تستعملُ كلمةً مازلتُ إلى اليوم أجهل معناها.

ـ وطنكَ؟

ـ إنني لأجهلُ على أي ارتفاعٍ هو.

ـ الفتنة؟

ـ كنتُ لأحبها عن طيب خاطر، إلهةً وسرمديةً.

ـ الذهبَ؟

ـ إنني لأكرهه كراهيتك للرب.

ـ إيه! ماذا تحب إذاً أيها الغريب العجيب؟

ـ أحب السحب... السحب العابرة... هناك... هناك... السحب الفاتنة!

II
يأس العجوز

العجوز الهزيلة الذابلة تغمرها الفرحة إذ ترى هذا الطفل الجميل الذي يحتفل به الجميع، الذي يشتهي الجميع إرضاءه، هذا الكائن الجميل، بالغ الهشاشة مثلها، العجوز الهزيلة، والذي، مثلها أيضاً، بلا أسنان وبلا شَعر.

دنتْ منه، تود أن تهديه بسمات رقيقة وبشاشات سارّة.

لكن الطفل الخائف حاول التملص من ملاطفات المرأة الهرمة الطيبة. وملأ البيت بصراخه الثاقب.

عندئذ، انزوت العجوز الطيبة في وحدتها الأبدية، وراحت تبكي في أحد الأركان وهي تحدّثُ نفسها: ـ «آه! بالنسبة لنا، نحن الإناث العجائز التعيسات، مضى عمر الإرضاء، حتى للأبرياء، وها نحن نروّعُ الأطفال الصغار الذين نشتهي حبهم!».

■ ■ ■

III
صلاة اعتراف الفنان

لَكَمْ هي نافذةٌ نهاياتُ نهاراتِ الخريف! آه! حتى الألم نافذة! فهناك أحاسيس لذيذة لا يبدِّدُ غامضُها كثافتها؛ وما من نصل أمضى من نصل اللانهائي.

لذةٌ عظيمةٌ هي لذة إغراق المرء نَظَره في ملكوت السماء والبحر الرحيب! الوحدة، الصمت، طهارة اللازورد التي لا تُضاهى! في الأفق يرتجف شراع صغير، يحاكي في ضآلته وعزلته حياتي التي لا برء من أوجاعها، نغمة موج البحر الرتيبة، كل هذه الأشياء عبري تفكر وأفكر عبرها (ففي رحابة أحلام اليقظة ما أسرع ضياع الأنا!)؛ أقول إنها تفكر، لكنما بشكل موسيقيٍّ آسرٍ خلاب، دون مماحكات، دون قياسات منطقية، دون استدلالات.

ومع ذلك، سرعان ما تصبح هذه الأفكار عظيمة القوة، أكانت تصدر من أعماقي أم تنبجس من الأشياء. والطاقة الكامنة في الشهوة تورِّث همّاً ومكابدة إيجابية. فلا تعود أعصابي المشدودة تبدي شيئاً سوى ارتجاجات صخابة أليمة.

والآن يروّعني عمق السماء، وصفاؤها يكدرني. وجمود البحر وركود المشهد يثيران نفوري... آه! ألابد من المكابدة أبداً، أو لابد من الهرب من الجميل أبداً؟ أيتها الطبيعة، الفاتنة بلا رحمة، الخصم الظافر أبداً، دعيني وشأني! كفى عن إغواء رغباتي وكبريائي! طلبُ الجميل مبارزة يصرخ فيها الفنان رعباً قبل أن يُهْزَمَ.

■ ■ ■

IV

مُداعِب

كانت تلك فرقعة السنة الجديدة: فوضى الوحل والثلج، تخترقها ألف عربة، متلألئة باللعب وبالحلوى، غاصة بألوان الجشع والاستماتة، هذيان رسمي لمدينة عظيمة مهمته إزعاج دماغ أقوى إنسان وحيد.

وسط هذا الهرج والمرج وهذا الصخب، بنشاط مشى حمار، أنهكه فظ مسلح بكرباج.

حين انعطف الحمار عند مفترق للطرق، مال سيد وسيم يلبس جوانتيا، بَراقُ المظهر، يرتدي كرافتة مشدودة بشكل بشع وحبيسُ عادات محدثة تماماً، مال بشكل احتفالي على الحيوان المسكين وقال له وهو يرفع قبعته: «أطيب وأسعد أمنياتي لك!» ثم التفت إلى من لا أدري أي صحاب مختالاً، كما لو كان يطلب إليهم إبداء سرورهم لانشراح صدره.

الحمار لم ير هذا المداعب الوسيم، وواصل الجري بحماسة إلى حيث دعاه واجبه.

أمّا أنا، فقد استولى عليّ غضب لا نظير له على هذا الأبله الفخيم الذي بدا لي أنه يكثف في شخصه كل روح فرنسا.

V

الغرفة الخّداعة

غرفة تشبه حلم يقظة، غرفة روحية حقاً، حيث الهواء الراكد يصطبغ اصطباغاً رقيقاً بالوردي وبالأزرق.

هناك تأخذ الروح حمّام كسل، معطراً بالندم وبالرغبة - إنه شيء شفقي، أزرق ووردي؛ حلم شهوة خلال كسوف.

قطع الأثاث لها أشكال مستطيلة، منبطحة، واهنة؛ قطع الأثاث لها ملمح من يحلم؛ يقال إن لها حياة مسرنمة، كالنبات وكالمعدن. الفُرُشُ تتكلم لغة خرساء، كالأزهار، كالسموات، كالشموس الغاربة.

ليس على الحوائط أي دنس فني. قياساً إلى الحلم الخالص، إلى الانطباع الأولي، تجديفٌ هو الفن المحدد الملامح، الفن الثابت. هنا، كل شيء يتميز بالشفافية الكافية وبعتامة التناغم اللذيذة.

عطر في منتهى الرقة للاختيار الأكثر رهافة، تمتزج به نداوة بالغة الخفة، يسبح في هذا الجو، حيث الروح الغافية تهدهدها مشاعر دفيئة استنبات.

الموسلين يمطر بغزارة أمام النوافذ وأمام الفراش؛ يتدفق في شلالات مغمورة بالثلج. على هذا الفراش ترقد المعبودة، أميرة الأحلام، ولكن كيف جاءت إلى هنا؟ من الذي جاء بها؟ أية قوة سحرية نصّبتها على عرش الأحلام والشهوة هذا؟ ما أهمية ذلك؟ إنها هناك! وأنا أراها.

هناك أيضاً تلكما العينان اللتان يخترق لهيبهما الشفق؛ هاتان النجلاوان اللتان أتعرف عليهما في خبثهما المريع! إنهما تفتنان، تأسران، تلتهمان نظرة المتهور الذي يتأملهما. غالباً ما أمعنت النظر فيهما، هاتان النجمتان السوداوان الجديرتان بالفضول وبالإعجاب.

لأي شيطان حنون أدين بكوني محاطاً هكذا بالسر، بالصمت، بالطمأنينة وبالعطور؟ أوه أيتها الغبطة! ما نسميه عموماً بالحياة، حتى في اتساعها الأكثر هناءً، ليس فيه ما يجمعه بهذه الحياة السامية التي أتعرّفُ عليها الآن وأستمتع بها دقيقة دقيقة، ثانية ثانية.

لا! ما من دقائق بعدُ، ما من ثوانٍ بعدُ! لقد تلاشى الزمن؛ الأبديةُ هي التي تهيمن، أبدية المباهج!

لكن دَقَّةً رهيبة، ثقيلة، جلجلت على الباب، و، كما في الأحلام الجحيمية، خُيِّل إلى أنني أتلقى ضربةَ مِعْوَلٍ في أحشائي.

ثم دخل شبح. إنه مُحضِرٌ جاء لتعذيبي باسم القانون، أو محفظة دنيئة تشتكي من البؤس وتضيف تفاهات حياتها إلى أوجاع حياتي؛ أو أيضاً رسول مدير تحرير صحيفة يطلب تتمة المخطوط.

الغرفة الفردوسية، المعبودة، ملكة الأحلام، المرأة الأثيرية، بحسب تعبير رينيه العظيم، كل هذا السحر تبدد لدى الدَّقَّةِ العنيفة التي دقها الشبح.

رعب! أتذكر! أتذكر! أجل! هذا الكوخ القذر، مقام الضجر الأبدي هذا، هو مقامي لا سواه. هذه هي قطع الأثاث الغبية، المتربة، المهشمة؛ المدفأة التي بلا لهب وبلا جمر، الملطخة بالبصقات: النوافذ الحزينة حيث رسم المطر خطوطاً في الغبار، المخطوطات، المشطوبة أو الناقصة، تقويم السنة حيث عَلَّمَ القلمُ الرصاص على التواريخ المشؤومة!

وهذا العطر الذي جاء من عالم آخر، وانتشيت به بكل ما لدي من إحساس. يا للحسرة! لقد حلت محله نكهة التبغ النتنة المختلطة بما لا أدري أية عفونة مقززة. الآن أتنفس هنا زنخ الكآبة.

في هذا العالم الضيق، المتخم مع ذلك بالاشمئزاز، شيء واحد معروف يبتسم لي: قارورة المخدِّر الممزوج بروح الأفيون؛ صديقة عتيقة ورهيبة شأن جميع الصديقات، يا للحسرة! خصبة بالملاطفات وبالخيانات.

أوه! أجل! لقد عاود الزمن الظهور؛ الزمن يهيمن طاغياً الآن؛ ومع العجوز البشع عادت كل حاشيته الشيطانية من الذكريات والندم والتشنجات والمخاوف والكروب والكوابيس والحنق والعُصابات.

أؤكد لكم أن الثواني قد أصبحت الآن أقوى وأشد احتداماً، وكل ثانية، إذ تسيل من البندول، تقول: «أنا الحياة، التي لا تُحتمل، الحياة قاسية القلب!».

لا توجد في الحياة الإنسانية غير ثانية واحدة مهمتها إعلان نبأ سعيد، النبأ السعيد الذي يسبب لكل واحد رعباً من المستحيل تفسيره.

أجل! الزمن يسود؛ لقد استرد ديكتاتوريته الوحشية. وهو يسوقني، كما لوكنت ثوراً، بمنخازه ذى الحدين. - «حا، أيها الغبي! اعرق أيها العبد! عش أيها الملعون!».

■ ■ ■

VI
لكلٍّ وهمه

تحت سماء رمادية رحبة، في سهل واسع معفَّر، بلا سبل، بلا عشب أخضر، بلا شوك، بلا نبات شائك الوبر، التقيت بشراً كثيرين يمشون منحنين.

كل واحد منهم حمل على ظهره وهماً كبيراً، ثقيلاً ثقل شوال دقيق أو فحم، أو ثقل عُدَّةِ جنديٍ من المشاة الرومان.

لكن الحيوان البشع لم يكن ثقلاً عاطلاً، على العكس، لقد كان يطوق الإنسان ويقهره بعضلاته المرنة القوية؛ وكان ينشب مخلبيه العريضين بصدر حامله؛ وقد ناخت رأسه الخرافية على جبين الإنسان، كما لو كانت واحدة من تلك الخوذات المريعة التي كان المحاربون الأقدمون يحلمون بأن تساعدهم على تكثيف ذعر العدو.

سألتُ واحداً من أولئك البشر مستفسراً عن الجهة التي يتجهون إليها على هذا النحو. فأجابني بأنه لا يعلم شيئاً عن ذلك، لا هو ولا الآخرون؛ لكن من الواضح أنهم كانوا يتجهون إلى جهة ما، إذ كانت تدفعهم إلى السير حاجة لا تُقهر.

شيء غريب لابد من التنويه به: إن أياً من أولئك المسافرين لم يبد منزعجاً من الحيوان الضاري المتشبث برقبته والملتصق بظهره؛ يمكن أن يقال إنه يعتبره جزءاً لا يتجزأ من ذاته. وجميع هذه السحنات المكدودة والصارمة لا تنبئ بأي يأس؛ فتحت قبة السماء المثيرة للسأم، وأقدامهم مغروزة في غبار أرض مكفهرة كهذه السماء، ساروا بالهيئة المميزة لمن حُكِمَ عليهم بدوام الأمل.

مرَّ الموكب بجواري ثم غاب في أجواء الأفق، في الجهة التي يتوارى فيها سطح الكوكب المستدير عن فضول النظرة الإنسانية.

للحظاتٍ، غمرني اشتهاء فهم هذا اللغز؛ إلاّ أنه سرعان ما انقضّت عليّ اللامبالاة التي لا سبيل إلى مقاومتها فوجدتني من جراء ذلك أكثر انسحاقاً من انسحاقهم هم بأوهامهم الساحقة.

■ ■ ■

VII
المجنون وڤينوس

يا له من نهار رائع! البستان الرحب مغشى عليه تحت عين الشمس الحارقة، كما الشباب تحت غلبة الحب.

النشوة الشاملة للأشياء لا تتجلى في أي صخب؛ المياه نفسها كما لو أنها نائمة. هنا عربدة صامتة، مختلفة تماماً عن أعياد البشر.

يمكن أن يقال إن نوراً متنامياً أبداً يجعل الأشياء تتألق باطراد؛ إن الأزهار المستثارة تحترق باشتهاء منافسة لازورد السماء بطاقة ألوانها، وإن الحرارة، إذ تجعل العطور مرئية، تجعلها تصعد نحو النجم، كالدخان.

لكنني، في هذه الغبطة الشاملة، رأيت كائناً مكروباً.

تحت قدمي ڤينوس عملاقة، أحد أولئك المجانين المصطنعين، أحد أولئك المهرجين المتطوعين الذين يضحكون الملوك حين يستولي عليهم الندم أو الضجر، ملفوفاً بلباس صارخ ومضحك، معتمراً بقرون وبأجراس صغيرة، متكوماً بكليته أمام قاعدة التمثال، رفع عينين مغرورقتين بالدموع نحو الربة السرمدية.

وعيناه تقولان: «أنا آخر البشر وأكثرهم وحدة، محروم من الحب ومن الصداقة، وأدنى تماماً في هذا من أكثر البهائم حرماناً. ومع ذلك، فقد جُبلتُ، أنا أيضاً، على فهم الفتنة الخالدة والإحساس بها! آه! أيتها الربة! ترفقي بحزني وبهذياني!».

لكن ڤينوس القاسية القلب ترنو بعيداً إلى ما لا أدري أي شيء، بعينيها الرخاميتين.

■ ■ ■

VIII
الكلب وقارورة العطر

«كلبي الجميل، كلبي الطيب، كلبي العزيز، اقترب، تعال لتشم عطراً ممتازاً اشتريته من أحسن صانع للعطور في المدينة».

والكلب، هازاً ذيله، بما يعد، في ظني، علامة على الضحك والسرور لدى هذه الكائنات البائسة، يقترب ماداً في فضول أنفه المبلل إلى هذه القارورة المفتوحة؛ ثم، متراجعاً في ذعر، يعوي في وجهي، توبيخاً لي.

«آه! أيها الكلب البائس، لو أنني قدمت لك كومة من الخراء لشممتها ملتذاً ولربما التهمتها. وهكذا فإنك أيضاً، رفيق حياتي الحزينة عديم الجدارة، إنما تشبه الجمهور الذي لا يحب البتة أن نقدم إليه عطوراً جميلة تثير غيظه، بل قاذورات مختارة بعناية».

■ ■ ■

IX

بائع الزجاج الرديء

هناك أناس يغرقون في التأمل ولا يصلحون للفعل بالمرة، لكنهم، بتأثير دافع خفي ومجهول، أحياناً ما يتحركون إلى الفعل بسرعة يظنون هم أنفسهم أنهم غير قادرين عليها.

كذلك الذي، إذ يخشى من أن يجد عند بواب بيته نبأ مكدِّراً، يتسكع في جُبنٍ ساعة من الزمن أمام بابه قبل أن يتجاسر على الدخول، أو كذلك الذي يتردد على مدار خمسة عشر يوماً في فض رسالة وصلت إليه أو لا يتصالح إلاّ بعد انقضاء ستة أشهر مع اتخاذ موقف كان اتخاذه ضرورياً منذ سنة، فيحسون فجأة أحياناً أنهم مدفوعون إلى الفعل بقوة لا تقاوم، كسهم منطلق من القوس. والحال أن الواعظ والطبيب، اللذين يزعمان الإحاطة بكل شيء، ليس بمقدورهما أن يفسرا من أين تجيء بهذا الشكل جدّ المفاجئ طاقة مسرفة الجنون إلى هذه الأرواح الخاملة والشهوانية وكيف، مع عجزها عن إنجاز أبسط الأمور وأكثرها ضرورة، تواتيها في لحظة معينة شجاعة ممتازة لإتيان الأفعال الأكثر طيشاً وغالباً الأكثر خطراً.

أحد أصدقائي، وهو أكثر الحالمين مسالمةً، أشعل ذات مرة النار في غابة لكي يرى، فيما قال، ما إذا كانت النار سوف تنتشر بالسهولة التي يؤكد الجميع أنها تنتشر بها. وقد فشلت التجربة عشر مرات متتالية؛ لكنها، في المرة الحادية عشرة، نجحت نجاحاً أكثر من رائع.

آخرّ سوف يشعل سيجاراً بجوار برميل بارود، لكي يرى، لكي يعرف، لكي يغوي القدر، لكي يؤدي دور اللاعب، لكي يتذوق مسرات القلق، لأجل لا شيء، من باب الاستسلام للنزوات، من باب التعطل والفراغ.

ذلك نوع من الطاقة ينبجس من الضجر ومن الهواجس، وأولئك الذين تتجلى فيهم هذه الطاقة بإصرار قوي هم، عموماً، كما قلت، الأكثر تبلداً والأكثر استسلاماً للأحلام بين الكائنات.

آخرّ، جفول إلى حد أنه يغض بصره أمام نظرات البشر، إلى حد أنه يتعين عليه استجماع كل إرادته البائسة لكي يدخل قهوة أو لكي يمر أمام شباك مسرح، حيث يبدو المفتشون له وكأنهم لهم عظمة مينوس واياك ورادامانت، سوف يقفز فجأة على عنق عجوز مار بجواره ويعانقه بلهفة أمام الجمهور المندهش.

لماذا؟ لأن. . . لأن هذا الوجه بدا جذاباً له بشكل لا

يقاوم؟ ربما؛ لكن من المشروع أكثر افتراض أنه هو نفسه لا يعرف لماذا.

أكثر من مرة، كنتُ ضحية لهذه الأزمات ولهذه الاندفاعات، التي تجيز لنا تصور أن شياطين خبيثة تندس فينا وتجعلنا ننفذ، دون أن ندري، رغباتها الحمقاء.

ذات صباح، استيقظت متجهماً، حزيناً، متعباً من الفراغ، ومدفوعاً، فيما بدا لي، إلى اجتراح شيء عظيم، عمل مثير؛ ففتحت النافذة، ويا للحسرة! (لاحظوا، أرجوكم، أن روح الخداع التي لا تعد، عند بعض الناس، نتيجة جهد أو نتيجة تدبير، بل نتيجة إلهام مجاني، إنما ننتمي، ولو بحكم حماسة الرغبة فقط، إلى ذلك المزاج، الهستيري في نظر الأطباء، والشيطاني في نظر أولئك الأفضل تفكيراً إلى حد ما من الأطباء، والذي يدفعنا دون مقاومة إلى حشد من الأفعال الخطرة أو غير اللائقة).

أول من رأيت في الشارع كان بائع زجاج وصلتني صيحته الصارة النشاز عبر الجو الباريسي المخم والقذر. وسوف يكون من المستحيل عليّ أيضاً أن أوضح لماذا استولت عليّ حيال هذا الإنسان المسكين كراهية مباغتة واستبدادية في آن.

«هيه! هيه!» وناديته أن يصعد. إلاّ أنني فكرت، ليس دون شيء من الفرح، أنه، بما أن غرفتي في الطابق السادس، وبما

أن السلم ضيق جداً، فلابد من أن يكابد الرجل بعض المشقة في الصعود وفي الإمساك في أكثر من موضع بجنبات بضاعته الهشة.

أخيراً ظهر: تفحصت بفضول كل ما لديه من زجاج، وقلت له: «كيف هذا؟ ليست لديك كؤوس ملونة؟ كؤوس وردية، حمراء، زرقاء، كؤوس سحرية؟ كؤوس فردوسية؟ يالك من سفيه! تتجاسر على الطواف في الأحياء الفقيرة، وليس معك حتى كؤوس تسمح برؤية الحياة جميلة!» ودفعته بقوة نحو السلم، حيث تعثر متذمراً.

دنوت من الشرفة وأمسكت بأصيص أزهار صغير، وعندما عاود الرجل الظهور عند مخرج الباب، رميتُ عمودياً آلتي الحربية على مؤخرة كلاباته؛ فقلبته الصدمة وهشمت تحت ظهره كل ثروته الجائلة البائسة، بما جعل الفرقعة صارخة كما لو أنها فرقعة قصر من الكريستال اخترقته صاعقة.

ومنتشياً بطيشي، ناديته غاضباً: «رؤية الحياة جميلة! رؤية الحياة جميلة!».

مثل هذه النكات العصبية ليست دون خطر وغالباً ما قد يدفع المرء ثمناً غالياً لها. ولكن ما أهمية أبدية اللعنة لمن وجد في ثانية لا نهائية المتعة؟

■ ■ ■

X
في الواحدة صباحاً

أخيراً! وحدي! لا أسمع بعدُ سوى بعض عربات الجياد المتأخرة والمتعَبَة. على مدار بضع ساعات سنملك الصمت، إن لم يكن الراحة. أخيراً! تبدَّدَ طغيان الوجه البشري، ولن أعاني بعدُ إلاّ من نفسي.

أخيراً، مسموح لي إذاً أن أسترخي في حمام العتمات! في البداية، دورتان في القفل. يخيل إليّ أن دورة المفتاح هذه سوف تكثف وحدتي وتعزز المتاريس التي تفصلني بالفعل عن العالم.

حياة مريعة! مدينة مريعة! فلنراجع ما حدث في النهار: رأيت عدة أدباء، سألني أحدهم ما إذا كان بإمكان المرء الذهاب إلى روسيا بَرّاً (لامراء في أنه ظن روسيا جزيرة)؛ تجادلتُ بسخاء مع مدير تحرير مجلة كان يرد على كل اعتراض: «نحن حزب الناس الشرفاء»، وهو ما يعني أن جميع المجلات الأخرى يحررها أنذال؛ حييّتُ عشرين شخصاً، خمسة عشر منهم لا أعرفهم؛ وزعتُ مصافحات بالنسبة

نفسها، وهذا دون أن أحتاط وأشتري جوانتيات؛ خرجت لقتل الوقت، خلال زخة مطر، عند مهرجة كانت قد رجتني أن أصمم لها رداءً ڤينوسياً؛ تملقتُ مخرجاً مسرحياً، قال وهو يصرفني: «ربما يحسن بك أن تتوجه إلى ز...، إنه أثقل وأغبى وأشهر جميع كتابي؛ قد يكون بوسعك أن تصل معه إلى شيء ما. إذهب إليه وسوف نرى»؛ تباهيتُ (لماذا؟) بعدة أفعال حقيرة لم أرتكبها قط وأنكرت بجبن بعض الآثام الأخرى التي اقترفتها بسرور، جرم ادعاء، جريمة تمس الحياء البشري؛ رفضتُ إسداء صنيع بسيط إلى صديق وأعطيت تزكية كتابية لألعبانٍ ناجز؛ أوف! أهذا كل ما هناك؟

مستاءً من الجميع ومستاءً من نفسي، أود استعادة شيء من الرضى عن نفسي وأن أسترد كبريائي قليلاً في صمت الليل ووحدته. يا أرواح من أحببتُ، يا أرواح من غنيت لهم، شدي من أزري، سانديني، أبعدي عني الأكذوبة وأبخرة العالم المفسدة؛ وأنت، يا مولاي يا إلهي! هبني نعمة كتابة بعض الأشعار الجميلة التي تثبت لي أنني لست آخر البشر، أنني لست أدنى من أولئك الذين احتقرهم!

■ ■ ■

XI

الزوجة المتوحشة والعشيقة التافهة

«الحق يا عزيزي أنك تتعبني إلى أقصى حد وبلا رحمة؛ يخيل للمرء، عندما يسمعك وأنت تتنهد، أنك تعاني أكثر من معاناة اللمّامات اللاتي بلغن الستين من العمر والشحاذات العجائز اللاتي يجمعن النفايات عند أبواب الحانات.

«لو كانت تنهداتك تعبر على الأقل عن الندم، لخلعتْ عليك شرفاً ما؛ لكنها لا تترجم سوى تخمة الرفاه ووطأة الراحة. ثم إنك لا تكف عن تبديد نفسك في كلمات بلا طائل: «امنحيني حبكِ الغامر! إنني أحوج ما أكون إليكِ! أثلجي صدري بكذا، لاطفيني بكيت!». عجباً، إنني أود محاولة علاجك؛ وقد نجد وسيلة لذلك، زهيدة، في أجازة، دون أن نذهب بعيداً جداً.

«فلنمعن النظر، أرجوك، في هذا القفص الحديدي الثابت الذي يثور خلفه، عاوياً ككائن محكوم عليه بالهلاك، هازاً القضبان كأورانج ـ أوتانج أغضبه النفي، محاكياً، بشكل ناجز، وثبات النمر الدائرية تارة، وتبخترات الدب الأبيض الغبية تارة

أخرى، هذا الوحش المشعر الذي تحاكي هيئته هيئتكَ بشكل جد ملتبس.

«هذا الوحش هو أحد تلك الحيوانات التي تُنَادَى عموماً «ملاكي!»، أي زوجة. أمّا الوحش الآخر، ذلك الذي يصرخ بأعلى صوته، وفي يده عصا، فهو زوج. لقد قيَّدَ زوجته الشرعية كبهيمة، وهو يعرضها في الضواحي، في أيام السوق، بتصريح من أولي الأمر، كما هو واضح بذاته. يقول: «انتبهوا! أنظروا بأي شره (غير مصطنع ربما) تمزق الأرانبَ الحية والدواجنَ التي لا تكف عن الصياح والتي يرميها لها سائسها. هيا، لا يجب للمرء أن يجهز في يوم واحد على كل ما لديه من زاد»، وبعد هذا الكلام الحكيم، انتزع منها بوحشية الفريسة التي بقيت أمعاؤها الممزقة معلقة للحظة بأسنان البهيمة الضارية، أعني الزوجة.

«هيا! ضربة جيدة بالعصا لتهدئتها! فهي تحدج الغذاء المخطوف بعيني الاشتهاء الرهيبتين. سبحانك يا ربي! العصا ليست عصا كاذبة، أمّا سمعتم صوتها على اللحم، بالرغم من الشعر المستعار؟ ثم إن عينيها تخرجان الآن من رأسها. وهي تعوي بشكل أكثر طبيعية. وفي سعارها، يتطاير الشرر من كل كيانها، كالحديد تحت المطرقة.

«تلك هي الأخلاق الزواجية لهذين السليلين لحواء ولآدم،

لهذين العملين اللذين عملتهما يداك، أوه يا إلهي! لا جدال في أن هذه الزوجة تعيسة، وإن كانت مسرات العز المدغدِغة ليست غريبة عنها، ربما، على أية حال. فهناك تعاسات أكثر استعصاء على البرؤ وبلا مقابل. إلاّ أنه في العالم الذي ألقيت فيه، لم يتسن لها قط أن تصدق أن المرأة تستحق مصيراً آخر.

«لنتكلم الآن فيما يخصنا، عزيزتي الغالية! عندما نتأمل ألوان الجحيم التي تغمر العالم، ما الذي تريدين لي أن أتصوره عن جحيمك الجميل، أنتِ التي لا ترتاحين إلاّ على فراش ناعم نعومة بشرتك، ولا تأكلين سوى اللحم المشوي الذي يهتم خادم ذكي بإعداده لك على هيئة شرائح؟

«وما الذي يمكن أن تعنيه لي كل هذه التنهدات الوضيعة التي تنفخ صدرك المرشوش بالعطر، أيتها المغناجة القوية؟ وكل هذه التصنعات، المنقولة من الكتب، وهذه الكآبة المتواصلة التي لا دور لها سوى أن تبث في صدر المشاهد شيئاً آخر تماماً غير الشفقة؟ الحق إنني يحدث لي أحياناً أن أشتهي أن أعرف منك ما هي التعاسة الحقيقية.

«عندما أراكِ هكذا، ناعمتي الجميلة، وقدماكِ في الوحل وعيناكِ تنظران بشكل دخاني إلى السماء، كما لو كانتا تطلبان منها ملكاً، قد يظن المرء أنك ضفدعة تلتمس المثل الأعلى. إذا كنت تحتقرين الإمعة (وهو ما أنا هو الآن، كما تعرفين

تماماً)، فاحذري الكُركي الذي سوف يلتهمك ويبتلعك ويقتلك ملتذاً!

«مع أنني شاعر، إلاّ أنني لست مغفلاً بالدرجة التي تظنين، وإذا ما أتعبتني أكثر من اللزوم بتباكياتك العزيزة، فسوف أعاملك كزوجة متوحشة، أو سوف أرميك من النافذة. كزجاجة فارغة».

■ ■ ■

XII
الحشود

ليس متاحاً لكل واحد أن يأخذ حمَّام حشد: فالتمتع بالحشد فن؛ وهذا الفن وحده يمكنه أن يقيم، على حساب الجنس البشري، عربدةً للحيوية، بثُّ جنّيةٌ لها في مهدها مذاق التنكر والقناع، وكراهية المسكن وعشق الرحلة.

الحشد، الوحدة: مصطلحان متعادلان ويمكن تحويل أحدهما إلى الآخر بالنسبة للشاعر المجتهد، خصب المخيلة. من لا يعرف سُكنى وحدته لا يعرف بالمثل كيف يكون وحده في حشد موّار بالحركة.

يتمتع الشاعر بهذا الامتياز الذي لا يُضَاهى، وهو أنه قادر متى شاء ذلك أن يكون نفسه وأن يكون الآخر. وشأنه شأن تلك الأرواح الهائمة التي تبحث عن جسد تستقر فيه، فإنه يدخل، متى شاء، في شخص كلّ واحد. فبالنسبة له وحده، كل شيء فارغ، وإذا ما بدت له بعض الأماكن موصدة، فما ذلك إلاّ لأنها لا تستحق في نظره عبء زيارتها.

يستمد المتجول الوحيد والمتأمل نشوة فريدة من هذا

الاجتماع الشامل. من يقترن بالحشد بسهولة يعرف مسرات محمومة، لن يتمتع بها أبداً الأناني، المقفل كصندوق، والكسول، الحبيس كحيوان رخوي. إنه يتبنى جميع المهن وجميع المسرات وجميع ألوان البؤس التي تعرضها الظروف عليه.

ما يسميه الناس بالحب هين جداً، محدود جداً وهزيل جداً، قياساً إلى تلك العربدة الفائقة الوصف، إلى تلك المومسة المقدسة للروح والتي تهب نفسها بالكامل، شعراً ورحمة، للمفاجئ الذي يظهر، للمجهول الذي يمر.

من المناسب أحياناً إفهام سعداء هذه الدنيا، ولو لمجرد إذلال غطرستهم الغبية مرةً، أن هناك هناءات أسمى من هنائهم، وأرحب وأكثر رهافة. لامراء في أن مؤسسي المستعمرات ورعاة الشعوب والكهنة المبشرين المنفيين في أقصى أطراف العالم يعرفون شيئاً ما عن هذه النشوات الخفية السرية؛ ووسط العائلة الكبيرة التي تتشكل فيها عبقريتهم، لابد أنهم يضحكون أحياناً من أولئك الذين يأخذون عليهم مصيرهم بالغ الاضطراب وحياتهم فائقة الطهارة.

■ ■ ■

XIII
الأرامل

يقول ڤوفنارج إنه توجد في الحدائق العامة مجازات يرتادها أساساً الطامحون المحبطون والمخترعون سيئو الحظ والأماجد المُجهَضون والقلوب المحطمة وجميع تلك الأرواح الجياشة والمغلقة التي مازالت تزمجر فيها التنهدات الأخيرة لعاصفة، والتي تنأى بعيداً عن نظرة المرحين والمتبطلين الوقحة. وهذه الأركان الظليلة هي ملتقيات جرحى الحياة.

إلى هذه الأماكن خاصة يهوى الشاعر والفيلسوف توجيه تخميناتهما المتحرقة. فهناك زاد أكيد. لأنه إن كان هناك مكان يأنفان زيارته، كما أوحيت بذلك للتو، فهو بالأخص بهجة الأغنياء. فهذا الصخب في الخواء ليس فيه ما يجتذبهما. وعلى خلاف ذلك، يشعران بالانجرار بشكل لا يقاوم صوب كل ما هو هش ومهدَّم ومحزون ويتيم.

والعين المجرِّبة لا تخطئ ذلك أبداً. ففي هذه السيماء الجامدة أو الأسيانة، في هذه العيون الغائرة والذابلة، أو اللامعة بآخر ومضات الصراع، في هذه التجاعيد العميقة الكثيرة، في

هذه الخطوات شديدة البطء أو شديدة الاهتزاز، سرعان ما ترصد العينُ الأساطير الوفيرة للحب المغدور وللإخلاص الذي لم يلق تقديراً وللجهود التي راحت سدى وللجوع وللبرد اللذين يجري تحملهما في استكانة وفي صمت.

هل حدث لكم أن لاحظتم أحياناً أرامل جالسات على تلك الدكك المنزوية، أرامل بائسات؟ من السهل التعرف عليهن أكنَّ في ثياب الحداد أم لا، ثم إن في ثوب حداد الفقير شيء غائب، غياب للانسجام يجعله أكثر حزناً. إنه مضطر إلى عدم الإسراف على ألمه، أمّا الثري فهو يرتديه في كماله.

من تكون الأرملة الأكثر حزناً والأكثر إثارة للأسى، تلك التي تقود بيدها طفلاً لا يمكنها أن تتقاسم معه هواجسها، أم تلك الوحيدة تماماً؟ لا أدري. . . حدث لي ذات مرة أن تتبعت على مدار ساعات طوال عجوزاً منكوبة من هذا النوع؛ تلك المتينة المنتصبة، في خمار متواضع رث، كانت تحمل في كل كيانها كبرياء رواقية.

من الواضح أنها كان محكوماً عليها، بحكم وحدة مطلقة، بعادات العانس العجوز، وقد أضاف طابع عاداتها الذكوري شوكاً خفياً لصرامتها. لا أدري في أية قهوة بائسة وبأى شكل تناولت إفطارها. تتبعتها في قاعة المطالعة؛ وراقبتها طويلاً وهي تبحث في الصحف، بعينين متوقدتين، حرقتهما الدموع في زمن غابر، عن أنباء باهتمام قوي وشخصي.

أخيراً، بعد الظهر، تحت سماء خريفية فاتنة، واحدة من تلك السموات التي يهبط منها حشد من الندم والذكريات، جلستُ منزوية في حديقة، لكي تستمع، بعيداً عن الزحام، إلى واحدة من تلك الحفلات الموسيقية التي تنعم بها فرقة الموسيقى العسكرية على الشعب الباريسي.

لا مراء في أن ذلك كان المجون المتواضع لتلك البريئة العجوز (أو لتلك العجوز المطهَّرة)، العزاء المكتسب من واحد من تلك الأيام الثقيلة بلا صديق، بلا محاورة، بلا فرحة، بلا نجِّي، والذي سمح الرب بنزوله عليها، منذ سنوات عديدة ربما! ثلاثمائة وخمساً وستين مرة في السنة.

واحدة أخرى أيضاً:

محال أن أمتنع عن إلقاء نظرة، إن لم تكن كلية التعاطف، فعلى الأقل فضولية، على حشد المنبوذين الذين يتدافعون حول سياج حفل موسيقي في مكان مكشوف. عبر الليل توزِّعُ الأوركسترا أغنيات العيد أو النصر أو الشهوة. الأثواب ترفل لامعةً؛ النظرات تتقاطع؛ المتبطلون، المتعبون من كونهم لم يعملوا شيئاً، يتمايلون، متظاهرين بتذوق الموسيقى في استرخاء. هنا لا شيء سوى الشراء والهناء؛ لا شيء إلاَّ ما يتنفس ويُلهم راحة البال ورغد العيش، لا شيء، ما عدا مظهر ذلك الحشد الفقير المستند هناك على الحاجز الخارجي، وهو

يلتقط مجاناً، بحسب ما تشتهي الريح، ومضة من الموسيقى ويرنو إلى الأثون المتلألئ في الداخل.

ممتع دائماً هذا الانعكاس لفرحة الثري في أغوار عين الفقير. إلا أنه في ذلك اليوم، خلل هذا الجمع الذي يرتدي البلوزات والثياب الهندية المشجرة، رأيت كائنا تباين نبله كل التباين مع كل الابتذال المحيط.

كانت امرأة عظيمة، جليلة، وجد نبيلة في سيمائها، بحيث إنني لا أتذكر أنني رأيت شبيهة لها في ألبومات جميلات الأزمنة الماضية الأرستقراطيات. كان عطر فضيلة متشامخة يفوح من كيانها كله. وكان وجهها، الحزين والشاحب، متماشياً تماماً مع ثوب الحداد الجليل الذي ارتدته. هي أيضاً، شأن العوام الذين امتزجت بهم ولم ترهم، نظرت إلى العالم المتلألئ بالنور بعين عميقة. وأنصتت وهي تهز رأسها برقة.

يا للمشهد الفريد! أُحَدِّثُ نفسي: «من المؤكد أن هذه الفقيرة، إن كانت فقيرة، لا يليق بها التسامح مع التقتير الدنيء؛ وجه نبيل كهذا يؤكد لي ذلك. فلماذا إذاً تتسامح مع البقاء في وسط تمثل فيه بقعة جد صارخة؟».

لكنني إذ مررت أمامها بفضول، خيل إليَّ أنني أدركت السبب. كانت الأرملة العظيمة تمسك بيدها طفلاً يرتدي الأسود مثلها. ومع أن ثمن الدخول كان زهيداً، إلا أن هذا

الثمن قد يكون كافياً لتلبية حاجة من حاجات الصغير، والأفضل من ذلك أيضاً أنه قد يكون كافياً لشراء شيء غير ضروري، لعبة مثلاً.

ماشيةً سوف ترجع، متأملة وحالمة، وحدها، دائماً وحدها؛ لأن الطفل شيطان، أناني، تعوزه الرقة ويعوزه الصبر، بل إنه لا يسعه، كالحيوان البرئ، كالكلب أو القط، أن يكون نجيّاً لأوجاع الوحدة.

■ ■ ■

XIV

المهرج العجوز

في عطلتهم، انتشر الناس وتدفقوا مغمورين بالحبور في كل مكان. كان ذلك واحداً من تلك المهرجانات التي يراهن عليها، لوقت طويل، المهرجون ومنظمو الجولات وعارضو الحيوانات والباعة الجائلون للتعويض عن مواسم العام الرديئة.

في تلك الأيام، يبدو لي أن الناس ينسون كل شيء، الألم والعمل؛ إنهم يصبحون شبيهين بالأطفال. وبالنسبة للصغار، يعد ذلك يوم عطلة، إنه رعب المدرسة وقد تقهقر أربعاً وعشرين ساعة. أمّا بالنسبة للكبار، فهو هدنة معقودة مع قوى الحياة الشريرة، استراحة قصيرة من الخصام والنزاع الشاملين.

الإنسان الدنيوي نفسه والإنسان المهموم بالمآثر الروحية يصعب عليهما الإفلات من تأثير هذا العيد الشعبي. إنهما يتنفسان، دون أن يرغبا في ذلك، حصتهما من جو اللامبالاة هذا. وفيما يخصني، فإنني، بوصفي باريسياً قحاً، لا أتخلف البتة عن متابعة جميع الأكشاك التي تتطاوس في تلك الأوقات الاحتفالية.

الحق إنها تتبارى مباراة شرسة: إنها تزقزق وتصرخ وتصيح. لقد كان ذلك خليطاً من الصرخات وفرقعات الآلات النحاسية وانفجارات السهام النارية. المسنون ـ الحمر والحمقى يرسمون تشنجات على ملامح وجوههم التي أضفت عليها الريح والمطر والشمس سمرة وخشونة؛ وبجسارة ممثلين واثقين من مقدرتهم على الإبهار، يطلقون كلمات ونكات جميلة لهزل متين وقوي كهزل موليير. والهرقلات، الفخورون بفخامة أعضائهم، بلا جبين وبلا جمجمة، الأورانج ـ أوتانج، يتبخترون في خيلاء تحت الأقمطة التي غُسلت الليلة الماضية لأجل المناسبة، والراقصات، الجميلات كالجنيات أو الأميرات، يتنططن ويثبن تحت نار الفوانيس التي تغمر تنوراتهن بالشرر.

كل شيء لم يكن سوى نور وغبار وصيحات فرح وصخب؛ البعض ينفق والبعض يكسب، وهؤلاء وأولئك مسرورون سواء بسواء. الأطفال يتعلقون بتنورات أمهاتهم طالبين مصاصة، أو يصعدون على أكتاف آبائهم حتى يستمتعوا بالفرجة على حاو مبهر كإله. وطاغية على جميع العطور، انتشرت في كل مكان رائحة مقليات كانت أشبه ما تكون ببخور ذلك العيد.

على الطرف، الطرف الأقصى لصف الأكشاك، كما لو كان قد نفى نفسه، خَجَلاً، عن جميع هذه البهارج، رأيت مهرجاً

فقيراً، محني الظهر، متداعياً، متهدماً، حطام إنسان، مستنداً إلى قائم من قوائم كوخه الصغير، كوخ أكثر بؤساً من وكر الوحش الأكثر غباوة، كانت شمعتاه الصغيرتان، السائلتان اللتان ينبعث منهما الدخان، تكشفان مع ذلك كل ما هو فيه من شقاء.

عم الحبور والكسب والمجون؛ عمت الثقة في توافر خبز للأيام القادمة؛ عم صخب الحيوية المسعور. هنا التعاسة المطلقة، التعاسة المستترة، تتمة للرعب، تتمة للأسمال الهزلية، حيث الضرورة، بأكثر بكثير من الفن، هي التي أدخلت المفارقة. لم تند عنه ضحكة، البائس! لم يبكِ، لم يرقص، لم يومئ بأية إيماءة، لم يصح؛ لم يغن أية أغنية، لا فَرِحة ولا مشجية، لم يتوسل. كان صامتاً صمتاً مطبقاً وكان بلا حراك. لقد انسحب، لقد اعتزل. وكان مصيره قد تقرر.

ولكن يا للنظرة العميقة التي لا تُنسى، لقد مرت على الحشد والأنوار التي توقَّف موجُها المتحرك على بُعد بضع خطوات من شقائه المنفر! أحسست حلقي وقد قبضت عليه يد الهستيريا الرهيبة. وبدا لي أن نظراتي قد صدمتها هذه الدموع المتمردة التي ترفض أن تسيل.

ما العمل؟ ما جدوى سؤال المنكود عن الطرفة أو العجيبة التي يمكنه اجتراحها في هذه العتمات العفنة، خلف ستاره

المهلهل؟ الحق إنني لم أجرؤ، ولابد لسبب ترددي من أن يضحككم، فأنا أعترف بأنني قد خشيت من إشعاره بالهوان، وفي النهاية، قررت أن ألقى خلال مروري به شيئاً من المال على أحد الألواح الخشبية، آملاً في أنه سوف يفهم قصدي، لكن هرولة عظيمة للناس إلى الوراء، لا أدري أي اضطراب تسبب فيها، جرفتني بعيداً عنه.

وإذ عدت إلى حيث كنت، وقد استولى على هذا المشهد، حاولت تفسير ألمي المباغت. وحدّثتُ نفسي: لقد رأيت للتو صورة أديب عجوز عاش إلى ما بعد الجيل الذي كان مسليه الرائع؛ صورة شاعر عجوز بلا أصدقاء، بلا عائلة، بلا أطفال، قضى عليه بؤسه والنكران الكلى للجميل، ولم يعد العالم عديمُ الذاكرة يريد الدخول إلى كشكه!

■ ■ ■

XV
الجاتوه

خرجتُ في رحلة. المشهد الطبيعي الذي وجدت نفسي في غماره كان موسوماً بجلال وبنبل لا سبيل إلى مقاومتهما. لامراء في أن شيئاً ما قد تسلل في الروح ساعتها. رفرفرت أفكاري بخفة مساوية لخفة الجو؛ المشاعر الرخيصة، كالكراهية وكالحب الدنيوي، بدت لي بعيدة بعد السحب العابرة في عمق المهاوي تحت قدميّ؛ بدت لي روحي رحبة وصافية رحابة وصفاء قبة السماء التي احتضنتني؛ لم تخطر بقلبي ذكرى الأمور الدنيوية إلاّ واهنةً ومختزلةً، كصوت أجراس صغيرة لأغنام غير مرئية تلوح بعيداً، بعيداً جداً، على سفح جبل آخر. على البحيرة الصغيرة الراكدة، المسودة بعمقها الغائر، مر بين الحين والحين ظل سحابة، كانعكاس معطف عملاقٍ أثيري يحلق في أجواء السماء. أتذكر أن هذا الشعور المهيب والنادر، المنبثق عن حركة جليلة صامتة، قد غمرني بفرحة ممتزجة بالخوف. باختصار، أحسستني، بفضل الفتنة الخلابة التي غمرتني، في سلام تام مع نفسي ومع العالم؛ بل إنني لأظن

أنني، في غبطتي الكاملة وفي نسياني الكامل لكل شر دنيوي، قد توصلت إلى الكف عن سخريتي المريرة من الصحف التي تزعم أن الإنسان ولد خيِّراً - وعندما جدَّد الجسم الذي لا برؤ له حاجاته، فكرت في ترميم التعب وفي تخفيف الاشتهاء المترتبين على صعود طويل كهذا. فسحبت من جيبي رغيفاً كبيراً وإناء من الجلد وقارورة إكسير كان الصيادلة يبيعونه في ذلك الوقت للسياح لمزجه عند الحاجة بماء الثلج.

في هدوء قطعت الخبز. وفجأة دفعتني همهمة إلى رفع عينيّ. كائن هزيل رث، أسود، مشعث الشعر، وقف أمامي، وعيناه الغائرتان، الضاريتان، وكأنهما تتوسلان، التهمتا قطعة الخبز. سمعته يتمتم، بصوت خافت أجش: جاتو! لم يكن بوسعي الامتناع عن الضحك وأنا أسمع التسمية التي تكرم بها على رغيفي شبه الأبيض. وقطعت له منه قطعة لا بأس بها قدمتها إليه. دنا ببطء، دون أن تفارق عيناه الشيء الذي يشتهيه؛ ثم، خاطفاً القطعة بيده، ابتعد بسرعة وكأنه كان يخشى من ألا يكون عرضي نزيهاً أو من أن أكون قد ندمت عليه بالفعل.

إلا أنه سرعان ما قلبه وحش هزيل آخر، لا أدري من أين جاء، يشبه الأول شبهاً ناجزاً بحيث يحسبه المرء توأمه. أخذا يتدحرجان على الأرض، متنازعين على الفريسة الثمينة، فبات واضحاً أن أيهما لا يريد التنازل عن النصف لأخيه. الأول،

حانقاً، شدّ الثاني من شعره؛ والثاني نشب أسنانه في أذنه وتفل قطعة صغيرة دامية منها وهو يتفوه بشتيمة عامية رائعة. المالك الشرعي للجاتوه حاول غرز مخالبه الصغيرة في عينيّ الغاصب؛ بدوره استجمع الغاصب كل قواه لكي يخنق خصمه بيد، بينما حاول باليد الأخرى دس غنيمة المعركة في جيبه. لكن المغلوب، وقد أحيته الاستماتة، تمالك زمام نفسه وطرح الغالب أرضاً بضربة من الرأس في أحشائه. ما جدوى وصف صراع بشع دام في الحقيقة وقتاً أطول مما يبدو أن قواهما الهشة تنبئ به؟ بين لحظة وأخرى، كان الجاتوه ينتقل من يد إلى يد ومن جيب إلى جيب؛ ولكن، يا للحسرة! لقد تغير حجمه هو الآخر؛ وعندما توقفا أخيراً، مكدودين، لاهثين، داميين، لاستحالة المواصلة، لم يعد هناك، والحق يقال، موضوع للعراك؛ كانت قطعة الخبز قد اختفت، كانت قد تبددت وتحولت إلى فتات يشبه حبات الرمل التي امتزج بها.

هذا المشهد كدّر المشهد الطبيعي في نظري، والفرحة الهادئةُ التي كانت روحي قد انشرحت فيها قبل رؤية هذين الإنسانين الضامرين تبددت تماماً؛ وظللت حزيناً من جراء ذلك لوقت طويل وأنا أردد لنفسي بلا توقف: «هناك إذاً بلد رائع يسمى فيه الخبز بالجاتوه، قطعة حلوى جد نادرة بحيث تكفي لإشعال حرب حقيقية بين الأشقاء!».

■ ■ ■

XVI

الساعة

يقرأ الصينيون الساعة في أعين القطط.

ذات يوم، انتبه مبشر أثناء تطوافه في أطراف نانكين إلى أنه قد نسي ساعته، فاستفسر من صبي عن الوقت.

في البداية، تردد ابن الامبراطورية السماوية؛ ثم أجاب، بعد أن عدل عن تردده: «سأنبئك به». بعد هنيهة، عاود الظهور ممسكاً بين يديه بقط ضخم قوي، وبعد أن نظر إليه، في بياض عينيه، كما يقولون، أكد بلا تردد: «نحن قبيل الظهيرة بقليل». وهو ما كان صحيحاً.

بالنسبة لي، لو ملتُ على فيلين (الرشيقة) الجميلة، الجديرة تماماً بهذا الاسم، والتي هي في آن واحد فخر جنسها وكبرياء فؤادي وعطر روحي، ليلاً كان أم نهاراً، في النور الساطع أم في الظل المعتم، دائماً ما أرى في عمق عينيها الفاتنتين الساعة واضحة، واحدة أبداً، ساعة رحبة، بهية، شاسعة كالفضاء، لا تنقسم إلى دقائق ولا إلى ثوان، ـ ساعة ثابتة لا تظهر في الساعات، ومع ذلك فهي خفيفة كتنهيدة، وسريعة كنظرة خاطفة.

لو أزعجني عارض ما ونظرتي مثبتة على هذه الميناء العذبة، لو قال لي جني شرير عنيد ما، شيطان عارض ما: «فيمَ تنظر بكل هذا الاهتمام؟ عمَّ تبحث في عيني هذا الكائن؟ أتنظر إلى الساعة، أيها السفيه والكسول الفاني؟» سوف أجيب بلا تردد: «أجل، أنظر إلى الساعة؛ إنها ساعة الأبدية!».

أليست هذه، سيدتي، غزلية جديرة بالتقدير حقاً، وفخيمة مثلك تماماً؟ الحق إنني وجدت متعة غامرة في توشية هذه الغزلية المتكلّفة بحيث إنني لن أطلب منكِ شيئاً في المقابل.

■ ■ ■

XVII

نصفُ عالَمٍ في شَعر امرأة

دعيني أستنشق طويلاً، طويلاً، رائحة شَعرك، دعيني أُغرقُ فيه كل وجهي، كالظمآن الذي يغرق في ماء نبع، دعيني ألوح به بيدي كمنديل فواح بالعطر، كي أنثر ذكريات في الهواء.

آه لو تدرين بكل ما أرى! بكل ما أحس! بكل ما أسمع في شَعرك! روحي تسبح على العطر مثلما تسبح أرواح الآخرين على الموسيقى.

شَعرك مستقرُّ حلم كامل، عامرٍ بالأشرعة وبالصواري، شعرك مستقرٌ بحار عظيمة تحملني رياحها الموسمية إلى مناخات فاتنة، حيث الجو معطر بالثمار وبأوراق الشجر وبالبشرة الإنسانية.

في محيط شعرك، ألمح مرفأً مزدحماً بأناشيد الحنين وبرجال أشداء من شتى الأمم وبسفن من كافة الأشكال تبرز عماراتها الرشيقة والمعقدة في فضاء رحيب حيث تتهادى الحرارة الأبدية.

في ملاطفات شَعرك، أستعيد تباريح الساعات الطوال التي

قضيتها على أريكة، في قمرة سفينة جميلة، وقد هدهدها التأرجح الرهيف للمرفأ، بين أصص الأزهار والأباريق الفخارية المنعشة.

في أتون شَعرك المضطرم، أستنشق نكهة التبغ الممتزجة بالأفيون وبالسكَّر؛ في ليل شَعرك، أشهد سطوع لا نهائي السماء اللازوردية الاستوائية؛ على ضفاف شَعرك الزغبة، أنتشي بائتلاف روائح القار والمسك وزيت جوزة الهند.

دعيني أشد بنواجذي طويلاً على خصلات شَعرك الثقيلة السوداء. عندما أعضعض في شَعرك المتموج الهائج، يخيل إليَّ أنني ألتهم ذكريات.

■ ■ ■

XVIII
الدعوة إلى السفر

بلد رائع هو، يقال إنه بلد نعيم، أحلم بزيارته في صحبة صديقة عزيزة. بلد فريد، غارق في ضبابات شمالنا، يمكن أن يسمى شرق الغرب، أو صين أوروبا، حيث الخيال المتقد والطائش يجد له مرتعاً، حيث شرّقهُ الخيالُ في صبر وإصرار بعلمائه وبنباتاته الناعمة.

بلد نعيم حقيقي، حيث كل شيء جميل وثري وهادئ ولائق؛ حيث الترف يجد مسرة في تجليه في النظام؛ حيث الحياة سخية وعذبة يلذُّ استنشاقها؛ حيث لا وجود للفوضى وللهياج وللطارئ؛ حيث الغبطة قرينة للصمت؛ حيث المأكل نفسه شعري وسخي وشهي في آن؛ حيث كل شيء يشبهك، يا ملاكي العزيز.

أتعرفين ذلك الداء المحموم الذي يفترسنا في التعاسات الباردة، ذلك الحنين إلى بلد نجهله، عذاب الفضول؟ إنه بلد يشبهك، حيث كل شيء جميل وثري وهادئ ولائق، حيث شيد الخيال وزخرف صيناً غربية، حيث الحياة عذبة يلذ

استنشاقها، حيث الغبطة قرينة للصمت. إلى هناك تحديداً يجب الذهاب للعيش، إلى هناك تحديداً يجب الذهاب للموت!

أجل، إلى هناك تحديداً يجب أن نذهب لكي نستنشق ونحلم ونطيل الساعات بلا نهائية الأحاسيس. موسيقيٌّ أَلَّفَ الدعوة إلى الڤالس، فمن الذي سوف يؤلف الدعوة إلى السفر، التي يمكن أن تُهدى إلى المرأة المحبوبة، إلى الأخت الأثيرة؟

أجل، في هذا الجو تحديداً يحسن العيش، هناك، حيث الساعات الأبطأ مستقرُّ أفكار أكثر، حيث الساعات تعلن الغبطة باحتفال أعمق وأغنى دلالة.

على اللوحات الساطعة أو على الجلود المذهبة ذات الثراء المعتم، دون بهرجة تحيا صور وادعة وهادئة وعميقة، كأرواح الفنانين الذين أبدعوها. الشموس الغاربة، التي تلون بثراء زاهٍ غرفة المعيشة أو الصالون، تخفف من ضوئها فُرُش جميلة أو تلك النوافذ العالية المزخرفة التي يقسمها الرصاصيُّ إلى أقسام عديدة. قطع الأثاث رحبة، عجيبة، غريبة، مزودة بأقفال وبأسرار كأرواح رهيفة. المرايا والمعادن والفُرُش والمصوغات والخزفيات المزخرفة تعزف هناك للعيون سيمفونية صامتة وخفية؛ ومن شتى الأشياء، من شتى الأركان، من فتحات الأدراج ومن ثنيات الفُرُش يتسلل عطر فريد، معهود سومطرة، شبيه بروح الشقة.

أقول لكِ بلد نعيم حقيقي حيث كل شيء ثري ونظيف وساطع، كضمير جميل، كأدوات طبخ بديعة، كمصوغات رائعة، كمجوهرات سخية الألوان! كنوز العالم تنصب هناك، كما في بيت رجل مجتهد، يستحق العرفان من العالم كله. بلد فريد، أرقى مما عداه، كما الفن قياساً إلى الطبيعة، حيث الطبيعة يهذبها الحلم أو يقومها ويجملها ويصوغها من جديد.

فليحاول خيميائيو البستنة هؤلاء، وليحاولوا من جديد، وليزحزحوا بلا توقف حدود غبطتهم! فليعرضوا مكافأة قدرها ستون ومائة ألف فلورين لمن يحل مشكلاتهم الطموحة! أمَّا أنا، فقد وجدت زنبقتي السوداء وزهرتي الدهلية الزرقاء!

زهرة لا مثيل لها، زنبقة مستعادة، زهرة دهلية رمزية. أليس إلى هناك تحديداً، في ذلك البلد الجميل الهادئ كل الهدوء والحالم كل الحلم، يجب الذهاب للعيش وللازهرار؟ ألن تجدي نفسك محاطة بنظيركِ، وألن يكون بوسعك رؤية نفسك في ما يتماهى معك، إذا استخدمنا لغة الصوفيين؟

أحلام! أحلام أبداً! وكلما تزايد طموح الروح ورهافتها، كلما نأت الأحلام عن الممكن. كل إنسان يَحمل في ذاته جرعته من الأفيون الطبيعي، خافية ومتجددة أبداً، ومن الميلاد إلى الموت، كم من الساعات التي نحياها عامرة بالمسرة الأكيدة، بالفعل الناجح والناجز؟ هل سنحيا يوماً ما، هل

سننتقل يوماً ما إلى هذه اللوحة التي رسمتها روحي، هذه اللوحة التي تشبهكِ؟

هذه الكنوز، قطع الأثاث هذه، هذا الترف، هذا النظام، هذه العطور، هذه الأزهار المعجزة، هي أنتِ. أنتِ أيضاً هذه الأنهار العظيمة وهذه النهيرات الهادئة. هذه السفن العظيمة التي تحملها، العامرة كلها بالثروات والتي تصعد منها أناشيد حركتها وحيدة اللحن، هي أفكاري التي تهجع أو تتقلب على صدركِ. بعذوبة تقودينها إلى البحر الذي هو اللانهائي، فيما تنعكس أعماق السماء في شفافية روحك الفاتنة؛ - وعندما تؤوب إلى المرفأ الأم، متعبةً من صخب الموج ومن ازدراد منتجات الشرق، فإن أفكاري أيضاً التي أمست أكثر ثراء هي التي تؤوب من اللانهائي إليكِ.

■ ■ ■

XIX
لعبة الفقير

أود إعطاء فكرة عن تسلية بريئة. فما أقل التسليات غير الآثمة! عندما تخرج صباحاً عازماً على التسكع في الطرق الرحبة، املأ جيوبك بمبتكرات صغيرة زهيدة ـ كالدمية البلهاء ذات الحدبتين التي يحركها سلك واحد أو كالحدادين الذين يدقون على السندان أو كالفارس وجواده الذي ذيله صفارة، ـ وعلى طول الحانات، تحت الأشجار، إهدها إلى من تصادف من الأطفال البؤساء الذين لا تعرفهم. سترى أعينهم وقد اتسعت اتساعاً غريباً. في البداية لن يتجاسروا على تناولها؛ فهم يشكون في الغبطة التي باغتتهم. ثم سرعان ما سوف يتناولون الهدية بلهفة، ويهربون بعيداً كالقطط التي تأكل في مكان بعيد اللقمة التي رميتها لها، لأنها تعلمت الاحتراس من الإنسان.

على درب، خلف سياج بستان رحب، ظهر في نهايته بياض قصر بهي لفحته الشمس، وقف طفل جميل غض، يرتدي تلك الثياب الريفية المفعمة بالفتنة.

الترف وراحة البال والمشهد المألوف للثراء تجعل أولئك الأطفال آية في الجمال بحيث يحسبهم المرء مجبولين من طينة تختلف عن طينة أطفال من يحيون على الكفاف أو الفقراء.

بجواره، رقدت على العشب لعبة رائعة، غضة كصاحبها، بهية، مذهبة، أرجوانية الثوب، وثرية بالريش وبالخرز الزجاجي الملون. لكن الطفل لا يبالي بلعبته الأثيرة، وهاكم ماشد بصره:

على الجانب الآخر من السياج، على الدرب، بين الأشواك والنباتات شائكة الوبر، كان هناك طفل آخر، قذر، هزيل، داكن، واحد من أولئك الصبية المنبوذين الذين سرعان ماتكشف عين محايدة جمالهم، تماماً، كما سرعان ما يستشف بصر العليم صورة مثالية خلف طلاء صانع المركبات، فهو يجلو عنه زنجار البؤس المقزز.

عبر هذه القضبان الرمزية الفاصلة لعالمين، الدرب الرحب والقصر، فرّج الطفلُ الفقير الطفل الغني على لعبته التي تأملها الأخير بلهفة كما لو كانت شيئاً نادراً ومجهولاً. والحال أن تلك اللعبة التي راح القذر الصغير يثيرها ويهيجها ويهزها في صندوق من الأسلاك، كانت فأراً حياً! فالوالدان، من باب التوفير لا ريب، قد صادا اللعبة من الحياة نفسها.

وضحك الطفلان أحدهما للآخر في روح أخوية، فبانت أسنانهما ذات البياض الواحد.

XX

هبات الجنيات

كان ذلك اجتماعاً مهيباً للجنيات لكي يوزعن هبات على جميع المواليد الجدد، الذين رأوا نور الحياة قبل أربع وعشرين ساعة.

متباينات جداً كن كل أخوات القَدَر تلك العتيقات أسيرات النزوة والهوى وكل أمهات الفرح والألم الغريبات تلك: بعضهن بدونْ كئيبات عابسات والبعض الآخر بَدَوْن لعوبات ماكرات؛ بعضهن، الشابات، كن دائماً شابات، والبعض الآخر، العجائز، كن دائماً عجائز.

كان جميع الآباء المؤمنين بالجنيات قد جاءوا وقد حمل كل واحد منهم وليده الجديد بين ذراعيه. كانت المواهب والملَكات والحظوظ السعيدة والظروف القاهرة متكومة بجوار هيئة المحكمة، كما تتكوم الجوائز على المنصة في حفل توزيع الجوائز. لكن ما كان مختلفاً هنا هو أن الهبات لم تكن مكافأة لمجهود، بل كانت على النقيض من ذلك تماماً نعمة يُمَنُّ بها على من لم يعشْ بعد، نعمة قادرة على تقرير مصيره فتصبح من ثم مصدر تعاسته أو مصدر هنائه.

كانت الجنيات المسكينات غارقات لآذانهن في الأمر؛ فقد كان حشد الطالبين عظيماً، والكائنات الوسيطة، بين الإنسان والرب، محكومة مثلنا بقانون الزمن الرهيب وذريته التي لا نهاية لها من الأيام والساعات والدقائق والثواني.

الحق إنهن كن مرتبكات كالوزراء في جلسة استماع أو كموظفي مؤسسة الرهن الرسمية حين يجيز عيد قومي فك الرهون مجاناً. بل إنني لأظن أنهن كن ينظرن من وقت لآخر إلى عقارب الساعة في نفاد صبر كنفاد صبر القضاة الآدميين الذين لا يسعهم، وقد مر عليهم زمن منذ انعقاد جلستهم في الصباح، أن يمتنعوا عن الحلم بتناول الغداء وبلقاء الأسرة وبلبس أخفافهم العزيزة. وإذا كان، في العدل فوق الطبيعي، قدر من العجلة والتسرع، فليس لنا أن نعجب من وجودهما أحياناً في العدل البشري. وفي هذه القضية، من شأننا أن نكون نحن أنفسنا قضاة غير عادلين.

ومن ثم فقد ارتُكبت في ذلك اليوم بعض الهفوات التي يمكن اعتبارها غريبة لو كانت الحكمة، بأكثر من الهوى، هي الخاصية المميزة الأبدية للجنيات.

وهكذا فإن القدرة على جذب الثروة جذباً مغناطيسياً قد مُنحتْ للوريث الوحيد لعائلة طائلة الثروات، وبما أنه كان محروماً من أي إحساس بالبر حرمانه من أي اشتهاء للخيرات

الأكثر وضوحاً في الحياة، فقد كان مصيره أن يجد نفسه فيما بعد تحت وطأة ملايينه الساحقة.

كما مُنح عشقُ الجميل والقدرة الشعرية لابن معدِم كئيب، حجّار من حيث مهنته، لا يملك، بأية حال، مساعدةَ مَلَكاتٍ أو تلبية حاجاتٍ وليده الجدير بالرثاء.

نسيت أن أقول لكم إن التوزيع، في هذه القضايا المهيبة، بلا استئناف وإنه لا يمكن رفض أية هبة.

نهضت الجنيات كلهن، معتقدات أن مهمتهن الشاقة قد انتهت؛ إذ لم تبق بعدُ أية هبة، أية مكرمة لإلقائها إلى هذا السمك الآدمي قليل الشأن، فيما نهض رجل جسور، تاجر صغير مسكين، فيما أظن، وصاح وهو يمسك بالجنية الأقرب إليه من ردائها المصنوع من أبخرة لا حصر لألوانها:

«ما هذا يا سيدتي، لقد نسيتنا! طفلي لم يأخذ شيئاً! ولا يعقل أن أجيء إلى هنا لأجل لا شيء».

كان بالإمكان أن تشعر الجنية بالحرج؛ إذ لم يبق بعدُ شيء. لكنها تذكرت في التو والحال قانوناً معروفاً جداً - وإن كان نادراً ما يطبق - في العالم فوق الطبيعي، المسكون بتلك الآلهة الأسطورية غير المحسوسة، صديقة الإنسان، والمضطرة غالباً إلى التكيف مع أهوائه، كالجنيات والمردة والسلمندرات والأثيريات والأثيريين وحوريات الماء وحوريي وحوريات

البحر، - أعني القانون الذي يخول الجنيات، في حالة كهذه الحالة، أي حالة نفاد الهبات، صلاحية منح هبة، إضافية واستثنائية، وإن كان شريطة أن تملك الجنية مخيلة كافية لخلق هذه الهبة في التو والحال.

ومن ثم فقد ردت الجنية الطيبة، برباطة جأش تليق بمكانتها: «إنني أهب ابنك.. أهبه.. موهبة الإرضاء!».

«ولكن كيف يُرضي؟ يُرضي . . .؟ يُرضي لماذا؟». بعنادٍ تساءل التاجر الصغير، الذي لا ريب أنه كان واحداً من أولئك المحاججين الكثر، العاجزين عن الارتفاع إلى مستوى منطق العبث.

«لأن! لأن!»، ردت الجنية الغاضبة، مديرة ظهرها له؛ وعندما انضمت إلى موكب صاحباتها، قالت لهن: «ما رأيكن في هذا الفرنسي المتبجح الذي يريد فهم كل شيء والذي، بعد أن حصل لابنه على أفضل الهبات، يجرؤ مع ذلك على مساءلة ومناقشة ما لا سبيل إلى مناقشته؟».

■ ■ ■

XXI
الغوايات
أو ايروس وبلوتوس والشهرة

شيطانان رائعان وشيطانة، ليست أقل روعة، صعدوا الليلة الماضية السلم الخفى الذي تهجم منه الجحيم على ضعف الإنسان النائم وتتواصل معه سراً. انتصبوا في مهابة أمامي، واقفين كما لو كانوا على منصة. انبعث سنى سُلفوري من أولئك الثلاثة الذين انبثقوا على هذا النحو من أعماق الليل المعتمة. كانت ملامحهم جد فخورة وكلية الجبروت بحيث إنني، في البداية، حسبت الثلاثة كلهم آلهة حقيقية.

وجه الشيطان الأول كان وجه جنس ملتبس، كما كان في خطوط جسده تخنث الباخوسات الأقدمين. عيناه الجميلتان المسبلتان، بلونهما القاتم والغامض، كانتا تشبهان بنفسجتين ما تزالان مثقلتين بدموع العاصفة، فيما كانت شفتاه المنفرجتان قليلاً تشبهان مجمرتي عطر ساخنتين، فاحت منهما رائحة عطور زكية؛ وفي كل مرة كان يتنهد فيها، كانت تسطع حشرات معطرة بالمسك، مرفوفةً، مع احتدامات أنفاسه.

حول غلالته الأرجوانية، التف، على شكل حزام، ثعبان براق يحول إليه مسترخياً، وقد رفع رأسه، عينين متقدتين. تعلقتُ بهذا الحزام الحي، في تناوب مع قوارير مليئة بسوائل خبيثة، سكاكين لامعة وأدوات جراحة. أمسك بيده اليمنى قارورة ذات لون أحمر ساطع، سجلتُ عليها هذه الكلمات الغريبة: «اشربوا، هذا دمي، منعش تماماً»، وأمسك بيده اليمنى كماناً لا ريب أنه يساعده في غناء مسراته وآلامه ونشر عدوى جنونه في اجتماعات السَحَرَة الليلية.

تعلقت بعراقيبه الناعمة بعض حلقات قيد ذهبي مكسور وبينما أرغمه الضيق المترتب على ذلك على خفض بصره إلى الأرض، تأمل مختالاً مخالب قدميه، اللامعة المجلوة كحجارة مصقولة جيداً.

نظر إليَّ بعينيه الحزينتين حزناً لا سلوان له وقد سالت منهما نشوة غادرة، ثم قال لي بصوت مغرد: «إن أردتَ، إن أردتَ، سأجعلك سيد الأرواح. وستكون سيد المادة الحية بأكثر بكثير من سيادة النحات على الصلصال؛ وسوف تعرف المتعة المتجددة أبداً، متعة الخروج من نفسك لكي تنسى نفسك في الآخر، ومتعة اجتذاب الأرواح الأخرى إلى حد مزجها بروحك».

أجبته: «شكراً جزيلاً: أنا لا أعرف ماذا أصنع بهذه الحزمة

الرخيصة من الكائنات التي لا ريب في أنها لا تساوي أكثر مما تساويه أناي البائسة. وبالرغم من أنني أجد شيئاً من الخجل في التذكر، إلا أنني لا أريد نسيان شيء؛ ومع أنني لا أعرفك، أيها الوحش العجوز، إلا أن سكاكينك المحيرة وقواريرك الغامضة والقيود التي تربك قدميك هي رموز توضح كل الوضوح خطورة مصادقتك. فلتحتفظ لنفسك بهداياك».

الشيطان الثاني لم يكن له هذا الملمح المأساوي والباسم في آن، ولا هذه الأساليب الموحية الجميلة، ولا تلك الفتنة الناعمة الشذية. لقد كان رجلاً ضخماً، ذا وجه كبير بلا عينين، مال كرشه الكبير على فخذيه، وكانت بشرته مذهبة وساطعة كلها، كوشم وكحشد من الصور الصغيرة المتحركة التي تمثل أشكال البؤس الشامل التي لا حصر لها. فكان هناك رجال قصار ضامرون مسمرين عن طيب خاطر؛ وكانت هناك عفاريت صغيرة ممسوخة هزيلة كانت عيونها تطلب الصدقة في توسل يفوق توسل أيديها المرتعدة؛ ثم أمهات عجائز يحملن جهائض معلقة بأثدائهن الضامرة. وكان هناك من ذلك ما هو أكثر بكثير.

خبط الشيطان الضخم بقبضته على بطنه الهائلة فصدرت عنها عندئذ قعقعة معدنية مديدة ومدوية انتهت إلى أنين غامض مؤلف من أصوات بشرية لا حصر لها. ثم قهقه، كاشفاً بوقاحة

عن أسنانه العفنة، بضحكةٍ بلهاء داوية، شأن بعض الناس في شتى البلاد عندما يفرطون في تناول الغداء.

هذا الشيطان قال لي: «بوسعي أن أهبك ما يجيئك بكل شيء، ما يساوي كل شيء، ما يقوم مقام كل شيء!». وخبط على بطنه البشعة التي كان صداها المجلجل تفسيراً لكلامه الفظ.

أشحت وجهي عنه متقززاً وأجبت: «لا أحتاج، لأجل مسرتي، إلى بؤس أحد؛ ولا أريد ثروة محزونة، كورق حائط، بشتى التعاسات المصورة على بشرتك».

أما فيما يتعلق بالشيطانة، فسوف أكون كاذباً إن لم أعترف بأنني، لدى النظرة الأولى، قد وجدتها فاتنة فتنة غريبة. ولتعريف هذه الفتنة، لن يكون بوسعي مقارنتها بشيء أفضل من فتنة النساء رائعات الجمال اللاتي تقدم بهن العمر ومع ذلك لا يشخن ويحتفظ جمالهن بسحر الأطلال الآسر. كانت ذات مظهر حاسم ومفكوك في آن، وبالرغم من أن عينيها كانتا متعبتين، إلاّ أنهما كانتا مغمورتين بقوة فاتنة. وما أثار دهشتي أكثر من سواه هو خفاء صوتها الذي استعدتُ فيه ذكرى المغنيات ذوات الأصوات الأكثر خفوتاً الأكثر عذوبة إلى جانب شيء من بُحّة الحناجر المغسولة على نحو متواصل بماء الحياة.

قالت الربة الزائفة بصوتها الساحر والمفارق: «أتريد أن تعرف قوتي؟ استمع».

عندئذ نفخت في بوق هائل، مزين، كمزمار، بعناوين كل صحف العالم، وعبر هذا البوق صاح صاحب باسمي الذي دوى عبر الفضاء بهزيم مائة ألف رعد ورجع إليّ صداه من أبعد كوكب.

فهتفت، شبه مفتون: «يا إلهي! هذا هو ما هو ثمين بالفعل!».

إلا أنني عندما أمعنت النظر في المسترجلة المغوية، بدا لي على نحو غامض أنني أتعرف عليها إذ كنت رأيتها تدق الأقداح مع بعض الهازلين الذين أعرفهم؛ أما الصوت الأبح النحاسي فقد أعاد إلى سمعي ما لا أدري أي ذكرى عن بوق مومس.

ومن ثم فقد رددت، بكل ما عندي من ازدراء: «أغربي عن وجهي! لم أُخلق للاقتران بعشيقةِ بعض من لا أريد تسميتهم!».

مؤكد أنني بمثل هذا النكران الجسور للذات أملك الحق في الافتخار. لكنني لسوء الحظ استيقظت من النوم وهجرتني كل قوتي. قلت لنفسي: «الحق إنني لابد أنني قد نمت نوماً ثقيلاً جداً وإلاّ ما أبديت كل هذا الحذر. آه! لو كان بوسعهم أن يعودوا وأنا يقظان، لما بدرت مني كل هذه الحساسية!».

ورحتُ أناديهم بصوت عال، متوسلاً إليهم العفو عني، عارضاً عليهم أن أتسربل بالعار كلما كان ذلك ضرورياً لكي أكون جديراً بنيل نعمهم؛ إلا أنني لا ريب قد أهنتهم إهانة جسيمة، فهم لم يرجعوا قط.

XXII
شفق المساء

النهار يأفلُ. سكينةٌ غامرةٌ تعمُرُ الأرواح البائسة المتعبة من كد اليوم؛ والآن تكتسب أفكارُها ألوانَ الشفق الرقيقة الغامضة.

لكنما من أعلى الجبل يصل إلى شرفتي، عبر غمامات المساء الشفيفة، هزيمٌ عظيمٌ لحشدٍ من الصرخات المتنافرة التي يحُولها الفضاء إلى تناغم شجي، كتناغم المد الصاعد أو تناغم العاصفة حين تهم بالهبوب.

مَن التعساء الذين لا يجلب المساء لهم سكينة، والذين، كالبوم، يحسبون هبوط الليل علامة من علامات الصخب؟ هذا النُعاب الخبيث يصلنا من المأوى الأسود الجاثم على الجبل؛ وفي المساء، وأنا أدخن وأتأمل سكينة الوادي الرحب، المحفوف ببيوت كل نوافذها تقول: «هنا السكينة الآن؛ هنا مسرة العائلة!»، يمكنني، حين تهب الريح من الأعالي، أن أهدهد فكري المندهش من هذه المحاكاة لتناغمات الجحيم.

الشفق يثير المجانين ـ أتذكر أن الشفق طرح اثنين من أصدقائي مريضين. عندئذ صار الأول جاهلاً بجميع علاقات

الصداقة والأدب، وكوحش، أساء معاملة أول قادم. رأيته يرمى على رأس مدير الخدم في فندقٍ دجاجةً صغيرة ممتازة، تصوَّر أنه يرى فيها ما لا أدري أي هيروغليف مهين. وفي المساء، بشيرِ الشهواتِ العميقة، كانت الأشياء الأكثر عذوبة تفسد مزاجه.

أمّا الثاني، وهو طَموحٌ محطَّم، فكان، بقدر هبوط المساء، يزداد حدة وكآبة وتعذباً. ومع أنه كان متسامحاً واجتماعياً في النهار، إلاّ أنه كان لا يرحم في المساء؛ وكان جنونه الشفقي ينصبُّ في غضب عارم، ليس فقط على الآخرين، بل وعليه هو نفسه.

مات الأول مجنوناً، عاجزاً عن التعرف على زوجته وطفله؛ والثاني يحمل في روحه ضيقاً ناجماً عن قلق أبدي، وحتى لو نال كل آيات التكريم التي يمكن أن تهبها الجمهوريات والأمراء، إلاّ أنني أظن أن الشفق لن يتوقف عن أن يضيء في روحه الاشتهاء المتقد لأوسمة خيالية. الليل، الذي غمر روحيهما بعتماته، يضيء روحي؛ ومع أنه ليس من النادر أن ينتج السبب الواحد نتيجتين متعارضتين، فإنني دائماً ما أكون قلقاً وخائفاً من ذلك.

أوه أيها الليل! أوه أيتها العتمات المنعشة! أنتِ بالنسبة لي علامة عيد باطني، أنتِ الخلاص من عذاب! في وحدة

السهول، في المتاهات الحجرية لعاصمة، لمعان النجوم، انفجار الفوانيس، أنتِ السهم الناري للإلهة حرية.

أيها الشفق، كم أنت عذب ورقيق! الومضات الوردية التي ما تزال تجرجر أذيالها في الأفق كاحتضار نهار تحت قهر ليله الظافر، نيران الشمعدانات الكبيرة التي تخلّفُ بقعاً حمراء معتمة على هالات الغروب الأخيرة، الستائر الثقيلة التي تشدها يد لامرئية من أعماق الشرق، كلها تحاكي المشاعر المعقدة التي تتصارع في قلب الإنسان في ساعات الحياة المهيبة.

أو كأننا بإزاء أحد هاتيك الثياب الغريبة للراقصات، حيث يسمح سِتر شفاف ومعتم برؤية المفاتن الخفيفة لتنورة صارخة، كما يبين الماضي اللذيذ تحت الحاضر الأسود؛ والنجوم الذهبية والفضية المتأرجحة، التي تغمر الخيال، إنما تمثل نيرانه تلك التي لا تسطع جيداً إلاّ تحت ثياب حداد الليل القاتمة.

■ ■ ■

XXIII
الوحدة

صحافيٌ محبٌّ للبشر قال لي إن الوحدة مؤذية للإنسان، وشأن جميع المرتابين، استشهد بكلام آباء الكنيسة تأييداً لزعمه.

أعرف أن الشيطان يتردد بحرية على الأماكن المقفرة، وأن روح القتل والشبق تلتهب التهاباً رائعاً في الوحدة. إلاّ أن من الوارد أن هذه الوحدة ليست خطيرة إلاّ بالنسبة للنفس الخاوية والشاردة التي تملؤها بأهوائها وبأوهامها.

أكيد أن الثرثار الذي تتمثل متعته الأسمى في التحدث من فوق منصة أو منبر، يغامر تماماً بأن يصبح مجنوناً مسعوراً في جزيرة روبنسون. وأنا لا أطلب من صحافيِّ خصال كروزو الجسورة، لكنني أطلب ألاّ يقرر توجيه الاتهام إلى عشاق الوحدة واللغز.

في أجناسنا الثرثارة أفراد يمكنهم أن يقبلوا بنفورٍ قليل عذابَ الإعدام لو سُمح لهم بأن يلقوا من فوق منصة الإعدام خطبة فياضة، دون خشية من أن تقطع كلامهم فجأة مقصلةُ سانتير.

أنا لا ألومهم، لأنني أتصور أن جيشاناتهم الخطابية تحقق لهم شهوات مساوية للشهوات التي يستمدها آخرون من الصمت والتأمل؛ لكنني أحتقرهم.

ما أرغب فيه خاصة هو أن يدعني صحافي اللعين أستمتع بطريقتي. قال لي بنبرة أنْفٍ جد رسولية: «ألن تعاني إذاً من الحاجة إلى تقاسم مسراتك مع الآخرين؟». أنظروا الحسود الأريب! هو يعرف أنني أحتقر مسراته ويريد التسلل إلى مسراتي، معكّرُ المسرات البشع!

«تلك التعاسة الكبرى التي تتمثل في العجز عن أن تكون وحيداً!...»، في مكان ما قال لابروبيير ذلك، وكأنه يوبخ جميع أولئك الذين يسارعون إلى نسيان أنفسهم في الحشد، خائفين لا ريب من العجز عن تحمل أنفسهم بأنفسهم.

«مصدر جميع تعاساتنا تقريباً هو العجز عن البقاء في غرفتنا»، يقول حكيم آخر، باسكال، فيما أظن، مستحضراً هكذا في خلية الاعتكاف كل أولئك المجانين الذين يبحثون عن الهناء في الحركة وفي عهرٍ يمكنني أن أسميه أخوياً، إن شئتُ استخدام لغة عصرنا الجميلة.

■ ■ ■

XXIV
المشاريع

حَدَّثَ نفسه، وهو يتنزه في بستانٍ رحبٍ منزوٍ: «كم ستكون جميلة في ثوب أميري ثري وباذخ، وهي تهبط، في جو مساء جميل، السلالم الرخامية لقصر، أمام مروج وأحواض رحبة! فهي بالطبع لها سيماء أميرة».

وحين قطع شوطاً أبعد في الشارع، توقف أمام محل للنقوش، وعندما وجد في نموذج فني رشمةً تصور منظراً طبيعياً استوائياً، حَدَّثَ نفسه: «كلا! ليس في قصر يجب أن أتمنى امتلاك حياتها العزيزة. فهناك لن نكونَ في بيتنا. ثم إن تلك الجدران المثقلة بالذهب لن تدع مكاناً لتعليق صورتها؛ وفي تلك الرواقات المهيبة لا يوجد ركن للحميمية. هنا بالتأكيد تجب الإقامة لرعاية حب حياتي».

ومع استمراره في تحليل تفاصيل النقش بعينيه، واصل مُحَدِّثاً نفسه: «على ضفاف البحر، كوخ خشبي جميل، محاط بجميع هذه الأشجار الغريبة الساطعة التي نسيتُ أسماءها...، في الجو، رائحة مسكرة، يصعب تحديد ماهيتها...، في

الكوخ عطر ورد ومسك قوي. . . ، وبعيداً، وراء حقلنا الصغير، رؤوس صوارٍ يؤرجحها اضطرابُ الموج. . . ، حولنا، وراء الغرفة المضاءة بنور وَردي تخفف من وهجه الستائر، الغرفة المزينة بحصائر ندية وبأزهار مُتملة، مع مقاعد نادرة مزخرفة زخرفة برتغالية مثقلة، ومن خشب ثقيل ومعتم (حيث ستجلس جد هادئة، مستمتعة بالهواء، مدخنة التبغ المخلوط قليلاً بالأفيون!)، على خلفية الشرفة وصخب الطيور السكرى بالنور وثرثرة الزنجيات النحيلات. . . ، وعندما يحل الليل، وكمصاجبة لأحلامي، أسمع الأنشودة المنتحبة للأشجار الموسيقية، لأشجار الفيلاو الشجية! بلى، ذلك بالفعل هو الجو الذي أبحث عنه. فما حاجتي إلى القصر؟».

على مسافة أبعد، وقد سار في طريق رحب، لاحظ منزلاً نظيفاً جداً، حيث مالت رأسان مرحتان من نافذة منشرحة بستائر من النسيج الهندي مخطط الألوان. فحدث نفسه في التو والحال: «لابد لفكري من أن يكون صعلوكاً عظيماً حتى يبحث في مكان بعيد جداً عما هو قريب جداً مني. فالمسرة والسعادة في أول نزل صادفته، في نزل الصدفة، المفعم بالشهوات، نور ساطع، زخارف صينية جذابة، عشاء مستساغ، نبيذ حامز، وسرير رحب جداً بفُرُش خشنة قليلاً، لكنها ندية؛ فما هو الأفضل من ذلك؟».

وعندما عاد وحده إلى بيته، في تلك الساعة التي لا تكون فيها نصائح الحكمة قد اختنقت بعدُ تحت وطأة صخب الحياة الخارجية، حَدَّثَ نفسه: «لقد عشت اليوم، في الحلم، في ثلاثة مساكن وجدت فيها مسرة متساوية. فلماذا أرغم جسدي على تغيير المكان، مادامت روحي ترحل بهذه الخفة؟ وما نفع تنفيذ المشاريع، مادام المشروع بحد ذاته متعة كافية؟».

■ ■ ■

XXV
دوروتيه الجميلة

الشمس تلفح المدينة بوهجها المباشر الرهيب؛ الرمل يخطف الأبصار والبحر لامع. العالم المذهول تخور قواه في جبن ويخلد إلى القيلولة، قيلولة هي نوع من الموت اللذيذ حيث النائم، شبه مستيقظ، يتذوق شهوات فَنائه.

لكن دوروتيه، القوية والفخورة كالشمس، تتقدم في الشارع المقفر، حية وحيدة في تلك الساعة تحت السماء اللازوردية الرحبة، فتغدو بقعة صارخة وقاتمة على الضوء.

تتقدم، مؤرجحةً في استرخاء خصرها النحيل على وركيها الممتلئين. ثوبها الحريري المثير، ذو اللون الشفاف الوردي، يبين بحيوية عن غياهب بشرتها ويشد شداً قوياً قامتها الفارعة وظهرها الضامر وجيدها المشرئب.

شمسيتها الحمراء، كاسرةً حدة الضوء، تُسقط على وجهها الداكن حمرة انعكاساتها الدموية.

ثقل شعرها الغزير شبه الأزرق يشد إلى الوراء رأسها الرقيقة ويضفي عليها ملمحاً ظافراً ومسترخياً. أطراف أقراط ثقيلة تغرد سراً لأذنيها اللطيفتين.

من آن لآخر يرفع نسيم البحر من الطرف تنورتها المتموجة ويكشف عن ساقها الساطعة الفاتنة؛ وقدمها، التي تشبه أقدام الربات الرخامية التي تحتويها أوروبا في متاحفها، تطبع شكلها بوفاء على الرمل الناعم. فدوروتيه متأنقة أناقة مدهشة بحيث إن استمتاعها بأن تكون محل إعجاب يتغلب عندها على غطرسة المرأة المتحللة، ومع أنها حرة، إلاّ أنها تمشي بلا حذاء.

هكذا تتقدم، في انسجام، سعيدة بالحياة ومبتسمة ابتسامة صافية، كما لو أنها قد رأت على البُعد في الفضاء مرآة تعكس حركتها وجمالها.

في الساعة التي تئن فيها الكلاب نفسها من الألم تحت الشمس التي تُبَرِّحُها، ماذا يكون إذاً الدافع القوي الذي يجعل دوروتيه المسترخية، الجميلة والباردة كالبرونز، تمشي على هذا النحو؟

لماذا غادرت كوخها الصغير المرتب بأناقة، والذى تجعل منه أزهاره وحصائره الزهيدة مخدعاً حقيقياً؛ حيث تجد متعة كبرى في تمشيط شعرها وفي التدخين وفي استخدام مروحتها أو في التمري في مرآة مروحتها الكبيرة المصنوعة من ريش الطيور، فيما البحر، الذي يخبط الشاطئ على بعد مائة خطوة من هناك، يشكل نغمة قوية وحيدة اللحن مصاحبة لأحلام يقظتها المتأرجحة، وفيما القدر الحديدية، حيث تطهو يخنة من

سرطان البحر بالأرز وبالزعفران، ترسل إليها، من عمق الباحة، عطوراً مثيرة؟

لعلها على موعد مع ضابط شاب كان قد سمع رفاقه يتحدثون، على شطآن بعيدة، عن دوروتيه الشهيرة. لاشك أنها سوف ترجوه، المخلوقة البسيطة، أن يصف لها الحفل الراقص في الأوبرا، وسوف تسأله ما إذا كان بإمكان المرء أن يذهب إليه عاري القدمين، كما في رقصات يوم الأحد، حيث الكافرينات العجائز أنفسهن تصبحن ثملات وهائجات من الفرحة؛ كما أنها سوف تسأله ما إذا كانت سيدات باريس الجميلات كلهن أكثر جمالاً منها.

دوروتيه محبوبة ومدللة من الجميع وسوف تكون سعيدة تماماً لو لم تكن مضطرة إلى الادخار لكي تحرر اختها الصغيرة التي ما تزال في الحادية عشرة من العمر، والبالغة بالفعل ورائعة الجمال. لا ريب أنها سوف تنجح، دوروتيه الطيبة؛ مالك الطفلة بخيل جداً، بخيل كل البخل، بحيث يتعذر عليه أن يفهم جمالاً آخر غير جمال الريالات الرنانة!

■ ■ ■

XXVI
عيون الفقراء

آه! تريدين أن تعرفي لماذا أكرهك اليوم. لا ريب أن فهم السبب سوف يكون أيسر عليك من شرحي لكِ إياه؛ فأنت، فيما أظن، أكمل مثال للانسداد الأنثوي يمكن مصادفته.

كنّا قد قضينا معاً نهاراً طويلاً حسبته قصيراً. وكنا قد تعاهدنا على أن جميع أفكارنا ستكون مشتركة بين كلينا، وأن روحينا لن تعودا منذ ذلك الحين غير روح واحدة؛ - وهو حلم لافرادة فيه، على أية حال، وإن لم يكن قد حققه أحد بالرغم من أن جميع البشر قد حلموا به.

وفي المساء، وقد تعبتِ قليلاً، كنت قد أردتِ الجلوس على رصيف قهوة جديدة على ناصية شارع رحب جديد، كان ما يزال مليئاً بالحصى ويبدي بالفعل على نحو بهي مفاتنه التي لم تكتمل. وكانت القهوة متلألئة. إذ كان مصباح الغاز ينشر فيها كل حرارة البداية ويضيء بكل قواه الجدران الناصعة البياض ومفارش البنورات الباهرة وذهب الزخارف والأفاريز، والخدم ذوي الوجنات الممتلئة التي سحبتها الكلاب المقودة

من أرسانها، والسيدات الضاحكات للصقر الذي حط على معصمهن، والحوريات والربات اللاتي حملن على رأسهن ثماراً وفطائر وطرائد والهيبيات والجانيميدات وهم يقدمون بذراع ممدودة قارورة الباڤاريات الصغيرة أو المسلة ثنائية اللون من المثلجات مختلفة الألوان؛ التاريخ كله والميثولوجيا كلها وقد وضعا في خدمة النهم.

أمامنا مباشرةً، على قارعة الطريق، وقف رجل شهم في الأربعين من عمره، ذو وجه متعب ولحية وخطها الشيب، ممسكاً بيد صبياً صغيراً وحاملاً على الأخرى كائناً صغيراً بالغ الهشاشة بحيث لا يمكنه السير. كان يؤدي واجب مربية الأطفال فخرج بهما لأجل استنشاق هواء المساء. كلهم كانوا في أسمال. هذه الوجوه الثلاثة كانت صارمة بشكل غير عادي. وهذه العيون الست ثبتت نظراتها على القهوة الجديدة بإعجاب واحد، وإن كان متفاوتاً بحسب العمر.

قالت عينا الأب: «يا للجمال! يا للجمال! كأن كل ذهب العالم الفقير قد وضع على هذه الجدران». وقالت عينا الصبي الصغير: «يا للجمال! يا للجمال! لكن هذه دار لا يمكن أن يدخلها إلاّ الناس الذين ليسوا من أمثالنا» - أمّا عينا الطفل الأصغر فكانتا جد مفتونتين بحيث لا يمكنهما التعبير عن شيء سوى الفرح الأبله والغامر.

يقول المغنون إن السرور يسمو بالروح ويرهِفُ القلب. كانت الأغنية على حق في ذلك المساء، بالنسبة لي. فعائلة العيون هذه لم تجعل فؤادي رقيقاً وحسب، بل إنني شعرت بالخجل إلى حد ما من كؤوسنا ودوارقنا الأكبر من ظمأنا. حوَّلتُ نظراتي إلى نظراتكِ، يا حبي العزيز، لكي أقرأ فيها فكري؛ غرقتُ في عينيكِ رائعتي الجمال وغريبتي العذوبة، في عينيكِ الخضراوين، المسكونتين بالنزوة والملهمتين بالقمر، فإذا بكِ تقولين لي: «هؤلاء الناس لا يمكنني تحملهم بعيونهم المفتوحة كأبواب العربات! ألا يمكنك أن ترجو من رئيس خدم القهوة إبعادهم عن هنا؟».

ما أصعب التفاهم، يا ملاكي العزيز، وما أصعب تواصل الفكر، حتى بين الأحباب!

■ ■ ■

XXVII
ميتة بطولية

كان فانسيول مضحكاً يستحق الإعجاب ويكاد يكون واحداً من أصدقاء الأمير. إلاّ أنه بالنسبة لمن تكون مهنة الهزل قَدَرَهم، تتميز الأمور الجدية بجاذبية قاتلة، ومع أنه قد يبدو غريباً أن تتسلط أفكار الوطن والحرية على عقل بهلوان، إلاّ أن فانسيول قد شارك ذات يوم في مؤامرة حاكها نبلاء ساخطون.

وأينما كنا، هناك أهل الخير الذين يشون للسلطة بأولئك الأفراد ذوي المزاج السوداوي الذين يريدون خلع الأمراء ونقل المجتمع من حال إلى أخرى دون أخذ رأيه في ذلك، وهكذا ألقى القبض على أولئك النبلاء، كما على فانسيول، وبات إعدامهم أمراً مقرراً.

إنني أُسَلِّمُ بأن الأمير قد جن جنونه تقريباً إذ وجد بين المتآمرين الممثل الأثير لديه. لم يكن الأمير لا أفضل ولا أسوأ من أي أمير آخر؛ لكن حساسية مفرطة قد جعلته، في كثير من الحالات، أكثر قسوة واستبداداً من جميع أمثاله. والحق إن هذا المتيّم بعشق الفنون الجميلة والخبير الممتاز من جهة أخرى،

لم تكن هناك حدود لإرواء شهواته. ولَّما كان عديم المبالاة بالبشر وبالأخلاق إلى أبعد حد، وكان فناناً حقيقياً هو نفسه، فإنه لم يكن له من عدو أخطر من الضجر، وما بذله من جهود غريبة للهرب من طاغية العالم هذا أو للانتصار عليه، كفيل بأن يعود عليه، من طرف مؤرخ قاس، بلقب «الغول»، إن كان جائزاً، في مجاله، الكتابة عن حدث لا يدخل فقط في باب المتعة أو العجب، بل يعد واحداً من أكثر أشكال المتعة خطراً. ومأساة هذا الأمير الكبرى هي أنه لم يكن يملك مسرحاً واسعاً بما يكفي لإظهار عبقريته. وهناك نيرونات صغار يختنقون في الحدود مفرطة الضيق، ولن تكف العصور القادمة عن نسيان أسمائهم ونواياهم الطيبة. والحال أن الأقدار الغافلة قد وهبت هذا الأمير مَلَكات لا تتسع لها إمارته.

فجأة سرت شائعة بأن الأمير ينوي العفو عن جميع المتآمرين؛ وكان السبب وراء هذه الشائعة هو الإعلان عن مهرجان استعراضي كبير تقرر أن يمثل فيه فانسيول واحداً من أهم وأفضل أدواره، بل لقد قيل إن النبلاء المدانين سوف يحضرونه؛ وهو ما دفع السطحيين إلى اعتبار ذلك علامة جلية على كرم شمائل الأمير المفجوع.

من إنسان طبيعي وتلقائي تماماً في غرابة أطواره، كل شيء متوقع، بما في ذلك الفضيلة بل والعفو، خاصة إن كان من

الوارد أن يجد في ذلك متعاً غير متوقعة. إلاّ أن من تسنى لهم، مثلي، التغلغل في أعمق أعماق هذه الروح الغريبة والمريضة، رأوا أن الأرجح بما لا يقاس أن الأمير يود الحكم على قيمة المواهب التمثيلية لرجل محكوم عليه بالإعدام. إنه يود اغتنام الفرصة لإجراء تجربة فيسيولوجية ذات أهمية رئيسية ولمعرفة إلى أية درجة يمكن لملكات الفنان المعروفة أن ترتبك أو تتبدل تحت وطأة الظرف الاستثنائي الذي وجد نفسه فيه، ثم هل كانت في خاطر الأمير نية أكيدة إلى هذا الحد أو ذاك في العفو؟ تلك مسألة لم يتسن قط توضيحها.

وأخيراً، وقد جاء اليوم المشهود، استعرض ذلك البلاط الصغير كل أبهته، ولولا ما رأت العين لاستحال تصور كل ما تملك الطبقة المميزة، في إمارة صغيرة، محدودة الموارد، أن تبديه من أبهة في حفل حقيقي. هذا الحفل كان حقيقياً من زاويتين، أولاً من زاوية سحر الترف المهيمن وثانياً من زاوية الأهمية الأدبية والمحيرة التي أضفيت عليه.

تألق السيد فانسيول خاصة في الأدوار الصامتة أو قليلة الكلام، وهي غالباً الأدوار الرئيسية في مسرحيات الجن تلك الهادفة إلى التعبير رمزياً عن لغز الحياة. دخل المسرح في هدوء وارتياح كامل، وهو ما أسهم في تعزيز فكرة المغفرة والعفو عند جمهور النبلاء الحاضرين.

حين نقول عن ممثل: «هذا ممثل جيد»، فإننا نستخدم صيغة تعني أن بالإمكان أيضاً تمييز الممثل، أي الفن، المجهود، الإرادة، خلف الشخصية. والحال أنه لو توصل ممثل إلى أن يكون، قياساً إلى الشخصية التي يتعين عليه التعبير عنها، ماكانته أفضل تماثيل العصر القديم، المفعمة بالحياة وبالحيوية، الماشية على أقدامها والرائية، قياساً إلى الفكرة العامة والمشوشة عن الجمال، فلامراء في أن تلك سوف تكون حالة فريدة وغير متوقعة بالمرة. في تلك الأمسية، كان فانسيول نموذجاً مثالياً ناجزاً، بحيث يستحيل الشك في أنه نموذج حي وممكن وواقعي. أخذ هذا المهرج يتحرك جيئة وذهاباً، وهو يضحك ويبكي ويتشنج، فيما طوقت رأسه هالة لا تمحى، هالة غير مرئية للجميع، لكنها مرئية لي، امتزجت فيها، في اتحاد غريب، أشعة الفن وعزة الاستشهاد، وبما لا أدرى أي جمال خاص، مَزَجَ فانسيول ما هو إلهي وفوق طبيعي بأكثر تهريجاته انفلاتاً. ريشتي تهتز في يدي ودموع تأثر ماثلٍ أبداً تصعد إلى عينيّ بينما أحاول أن أصف لكم تلك الأمسية التي لا تُنسى. بشكل حاسم لا سبيل إلى المماراة فيه، أثبت لي فانسيول أن نشوة الفن أقدر من كل نشوة أخرى على حجب رعب الهاوية؛ أن النبوغ قادر على تمثيل الملهاة على حافة القبر بفرحة تحول بينه وبين رؤية القبر، مادام غارقاً في فردوس يبدد كل فكرة عن الموت والهلاك.

كل هذا الجمهور، مع ما قد يكون عليه من جسيم الإثارة للتقزز ومن تفاهة لا حدّ لها، سرعان ما يستشعر جبروت هيمنة الفنان. لم يعد أحد يفكر في الموت أو الحداد أو العذاب. استسلم الجميع، دون قلق، للشهوات الجمة المتفجرة من مشاهدة عمل فني رائع حي. فورانات الفرحة والإعجاب هزت عدة مرات قباب المبنى بقوة رعد متواصل. الأمير نفسه، منتشياً، مزج استحساناته باستحسانات بلاطه.

لكن نشوته، بالنسبة لعين ثاقبة، لم تكن بلا شائبة. هل شعر بأنه مغلوب في سلطته الاستبدادية؟ مهان في فن إرهابه للقلوب وإخماده للأرواح؟ محبط في أمانيه ومثار سخرية في تقديره للأمور؟ مثل هذه الافتراضات غير المبررة بالضبط وإن كان لا يتعذر بصورة مطلقة تبريرها، خطرت ببالي وأنا أتأمل وجه الأمير الذي تراكَبَ على شحوبه المعهود شحوب جديد متواصل، تَرَاكُبَ الغيمة على الغيمة. لم يتوقف عن زم شفتيه، فيما اتقدت عيناه بنار باطنية كنار الغيرة والضغينة، حتى وهو يتظاهر باستحسان مواهب صديقه القديم، المهرج الغريب الهازئ من الموت رائع الهزؤ. وفي لحظة ما، رأيت سموه يميل على خادم صغير، واقف خلفه، ويهمس له بشيء. سيماء الغلام الجميل الخبيثة تهللت بابتسامة؛ ثم غادر المقصورة الأميرية في حيوية، كما لو كان لأجل أداء مهمة ملحة.

بعد دقائق، قاطع صفير حاد طويل فانسيول وهو في خضم واحد من أقوى جيشاناته، ومزق الأسماع والأفئدة في آن. من الجهة التي صدر عنها هذا الاستهجان المباغت، اندفع طفل في أحد الممرات، كاتماً ضحكاته.

في البداية، أغمض فانسيول عينيه، وقد استيقظ من حلمه، ثم عاوَدَ فتحهما في التو والحال تقريباً، فبدتا واسعتين اتساعاً غريباً، ثم فتح فمه لكي يتنفس في تشنج، مترنحاً قليلاً إلى الأمام وقليلاً إلى الوراء، ثم هوى جثة هامدة على خشبة المسرح.

الصفير، السريع كضربة سيف، هل أحبط الجلاد حقاً؟ هل توقع الأمير نفسه كل ما لخدعته من كفاءة في القتل؟ يجوز الشك في ذلك. هل خامره الأسف على فانسيوله العزيز الفريد؟ جميل ومشروع أن نتصور ذلك.

لآخر مرة استمتع النبلاء المذنبون بالفرجة على الملهاة. وفي الليلة نفسها جرى محوهم من الحياة.

منذ ذلك الحين، جاء للتمثيل أمام بلاط * * * ممثلون إيمائيون عديدون، يحظون بتقدير مشروع في أكثر من بلد، لكن أحداً منهم لم ينجح في مجاراة مواهب فانسيول الرائعة، ولا في السمو إلى المكومة التي كانت من نصيبه.

■ ■ ■

XXVIII

العملة المزيَّفة

بما أننا كنا قد ابتعدنا عن مكتب التبغ، فقد أخذ صديقي يفرز نقوده فرزاً دقيقاً؛ في الجيب الأيسر لصدريته، دس العملات الذهبية الصغيرة، وفي الجيب الأيمن، دس العملات الفضية الصغيرة؛ وفي جيب بنطلونه الأيسر، دس كمية وفيرة من السولات الكبيرة، ثم دس في الجيب الأيمن قطعة فضية من فئة الفرنكين بعد أن فحصها باهتمام.

حدَّثتُ نفسي «يا له من توزيع فريد ودقيق!». صَادَفْنا فقيراً مدَّ لنا كاسكيته وهو يرتعش. لا أعرف شيئاً أكثر إثارة للقلق من البلاغة الخرساء لهذه العيون المتوسلة التي تحتوي في آن، للإنسان الحساس الذي يعرف قراءتها، قدراً كبيراً من الشعور بالمهانة ومن التبكيت. هناك شيء ما يقارب هذا العمق للمشاعر المركبة في أعين الكلاب الدامعة حين تتعرض للضرب.

كان تبرع صديقي أكبر بكثير من تبرعي، فقلت له «أنت على حق؛ فبعد متعة الدهشة، لا تعود هناك متعة أكبر سوى

متعة المفاجأة». فأجابني بهدوء، تبريراً لإغداقه: «تلك كانت العملة المزيفة».

إلاّ أنه في عقلي البائس، المهموم دائماً بالبحث عن المصاعب حيث لا توجد (يالَلْمَلكة المتعِبة التي أنعمت على بها الطبيعة!)، دخلت فجأة فكرة مؤداها أن مثل هذا المسلك، من جانب صديقي، لا يمكن تبريره إلاّ بالرغبة في إحداث مفاجأة في حياة هذا الرجل المسكين، بل وربما بالرغبة في معرفة النتائج المتباينة، المشؤومة أوغير ذلك، والتي يمكن أن تترتب على وجود قطعة نقود زائفة في يد شحاذ. أليس من الوارد أن تتكاثر في قطع حقيقية؟ أليس من الوارد أيضاً أن تقوده إلى السجن؟ فقد ينجح صاحب خمارة أو صاحب مخبز في توقيفه باعتباره مزيفاً للنقود أو مروجاً للعملة الزائفة. كما أن قطعة النقود الزائفة يمكن أن تكون، بالنسبة لمضارب صغير بائس، بذرة ثروة لعدة أيام. وهكذا مضت تخيلاتي في طريقها، مضفية أجنحة على تفكير صديقي ومستخلصة جميع الاستنتاجات الممكنة من جميع الافتراضات الممكنة.

لكن صديقي قطع تخيلاتي فجأة، مستعيداً كلماتي: «بلى، أنت على حق؛ فليست هناك متعة أجمل من مفاجأة إنسان بمنحه أكثر مما يمكن أن يتمناه».

نظرتُ إليه في بياض عينيه وهالني أن أرى عينيه وقد التمعتا

ببراءة لا جدال فيها. عندئذ رأيت بوضوح أنه أراد أن يقوم في آن واحد بعمل من أعمال البر وبصفقة مربحة؛ أن يكسب أربعين سولاً وقلب الله؛ أن يستولي على الفردوس بلا مقابل يذكر، ثم أن يحصل مجاناً على شهادة إنسان من أهل الإحسان. ويمكنني أن أغفرله تقريباً تلك الرغبة في المتعة الإجرامية التي رأيت للتو أنه قادرعليها؛ وأجد أن من الغريب والشاذ أن يستمتع بتوريط الفقراء؛ لكنني لن أغفرله أبداً حماقة حساباته. لا عذر بالمرة لأن يكون المرء شريراً، إلاّ أن هناك مأثرة ما في أن يكون الشرير عليماً بأنه شرير. والرذيلة الأصعب على العلاج هي رذيلة اقتراف الشر من باب الحماقة.

■ ■ ■

XXIX
المقامر الكريم

البارحة، عبر الحشد الذي غمر الطريق، أحسستني وقد احتك بي كائن ملغز طالما رغبت في التعرف عليه، وقد تعرفت عليه من فوري، مع أنني لم يسبق لي قط أن رأيته. لامراء في أنه كانت تخامره، حيالي، رغبة مماثلة، لأنه، في مروره، غمز لي غمزة لها دلالتها سارعت إلى الانصياع لها. سرت في أثره مراعياً مقامه وهبطت سريعاً وراءه إلى دار تحت الأرض، باهرة، يتلألأ فيها ترف لا يسع أحداً من أرقى سكان باريس أن يقدم مثالاً يدانيه. وبدا لي غريباً أن يكون قد تسنى لي المرور كثيراً بجانب هذا الملاذ المهيب دون أن أخمن مدخله. هناك هيمن جو ساحر، وإن كان مدوِّخاً، يؤدي بشكل يكاد يكون فورياً إلى نسيان الفظاعات المملة في الحياة؛ وكان بإمكان المرء أن يستنشق في ذلك المكان غبطة خافتة مشابهة للغبطة التي لابد أن يستشعرها آكلو اللوتس الذين، إذ يهبطون إلى جزيرة مسحورة، تضيئها أضواء ما بعد ظهيرة أبدية، يحسون أنهم تولد فيهم، على وقع أصوات شلالات شجية تؤدي إلى

النعاس، رغبة في ألا يعودوا أبداً إلى رؤية بيوتهم، زوجاتهم، أولادهم وألا يعودوا البتة إلى ركوب أمواج البحر العالية.

كانت هناك وجوه غريبة لرجال ونساء، موسومة بجمال قاتل، بدا لي أنني رأيتها من قبل في عصور وفي بلاد كان مستحيلاً عليَّ تذكرها بالضبط، وألهمتني تعاطفاً أخوياً بدلاً من ذلك الخوف الذي يولد عادة حيال المجهول. ولو أردت السعي إلى أن أعرف بشكل ما تعبير نظراتها الفريد، لقلت إنني لم أر من قبل قط عيوناً أنشط التماعاً بالذعر من السأم وبالرغبة السرمدية في استشعار الحياة.

بعد أن جلسنا، كنت أنا ومضيفي قد أصبحنا بالفعل صديقين قديمين وناجزين. أكلنا وأسرفنا في الشراب من جميع أنواع الأنبذة غير العادية، ومن الأمور التي ليست أقل غرابة أنه بدا لي، بعد عدة ساعات، أنني لم أكن أكثر منه سكراً. على أن القمار، هذه المتعة فوق الإنسانية، كان يقطع، على فواصل زمنية مختلفة، تناولنا المتكرر المفرط للخمر، ولابد أن أقول إنني قامرت وخسرت روحي، شبه المغلولة، بلا مبالاة واستخفاف بطوليين. الروح شيء غير محسوس جداً وغير مجد غالباً إلى حد بعيد وجد مزعج أحياناً بحيث إنني لم أشعر، حيال هذه الخسارة، إلا بقدر أقل من التأثر مما لو كنت قد أضعت، في نزهة، بطاقة الزيارة التي تخصني.

دخناً طويلاً سيجارات كان من شأن نكهتها وعطرها اللذان لا مثيل لهما أن بثا في الروح حنيناً إلى بلاد وهناءات مجهولة، وبينما كنت سكراناً بكل هذه الملذات، وفي نوبة ألفة لم يبد أنها لا تروق له، تجرأت وهتفت وأنا أتناول كأساً مليئاً إلى حافته: «في صحتك الخالدة أيها التيس العجوز!».

ثم إننا تحدثنا عن الكون، عن خلقه وعن دماره الآتي؛ عن فكرة العصر الكبرى، فكرة التقدم وإمكانية بلوغ الكمال، و، عموماً، عن شتى صور غرور البشر. وحول هذا الموضوع، لم يدخر صاحب السمو النكات الخفيفة والتي لا سبيل إلى المماراة فيها. وعبر عن نفسه بعذوبة أسلوب وبهدوء في المزاج لم أجدهما في أي من أشهر محدثي البشرية. وشرح لي سخف مختلف الفلسفات التي استولت حتى الآن على العقل البشري، بل إنه قد تكرم وأفضى لي ببعض المبادئ الأساسية التي لا يليق بي أن أتقاسم فوائدها وحيازتها مع أي كان. ولم يشك بأي شكل من سوء السمعة الذي يتمتع به في شتى أجزاء العالم وأكد لي أنه، هو نفسه، الشخص الأكثر اهتماماً بالقضاء على الخرافة واعترف لي أنه، فيما يتعلق بسلطته الخاصة، لم يستشعر الخوف إلا مرة واحدة، وكان ذلك عندما سمع واعظاً، أكثر براعة من زملائه، يصيح من على المنبر: «إخوتي الأعزاء، لا تنسوا أبداً، عندما تستمعون إلى تمجيد تقدم المعارف، أن أقوى خدع الشيطان هي إقناعكم بأنه لا وجود له!».

والحال أن ذكرى هذا الخطيب الشهير قد قادتنا بالطبع إلى موضوع الأكاديميات، وقد أكد لي مضيفي الغريب أنه، في كثير من الحالات، لم يزدر إلهام ريشة وكلام وضمير المربين وأنه قد حرص دائماً على الحضور بشخصه، وإن كان بشكل غير مرئي، في جميع الجلسات الأكاديمية.

وإذ شجعتني كل هذه المكارم، سألته عن أخبار الرب وما إذا كان قد رآه مؤخراً. فأجابني بلامبالاة يشوبها قدر من الحزن: «إننا نتبادل التحية عندما يتصادف لقاؤنا، ولكن كجنتلمانين قديمين، حيث لا يمكن لأدبهما الفطري أن يطفئ تماماً ذكرى العداوات القديمة».

من المشكوك فيه أن يكون صاحب السمو قد أتاح قط لقاء طويلاً كهذا لأحد من الفانين العاديين، وقد خشيت من التمادي. وأخيراً، بما أن الفجر المرتعش كان قد غسل زجاج النوافذ، قالت لي تلك الشخصية الشهيرة التي غنى لها الكثير من الشعراء وخدمها الكثير من الفلاسفة الذين عملوا لأجل مجدها دون علم منهم: «أود أن تحتفظ عني بذكرى طيبة وأن تثبت أنني، الذي قيل عنه الكثير من قول السوء، أحياناً ما أكون شيطاناً طيباً، إذا ما استخدمت واحداً من تعبيراتكم العامية. وحتى أعوضك عن الخسارة التي لا علاج لها بمقامرتك الخاسرة على روحك، فإنني أمنحك الرهان الذي

سوف تربحه إذا ما كان الحظ إلى جانبك، أي إمكانية أن تخفف وأن تقهر، طوال حياتك، مصيبة السأم الغريبة هذه، والتي هي سبب كل أمراضكم وكل تقدماتكم البائسة، ولن يحدث أبداً أن تصوغ رغبة إلا وسوف تجدني عوناً لك على تحقيقها؛ سوف تهيمن على أمثالك المبتذلين؛ وسوف يكون من نصيبك التملقات بل والتبجيلات؛ أما المال والذهب والماس والقصور السحرية فسوف تبحث عنك وترجوك أن تقبلها، دون أن تبذل جهداً للحصول عليها؛ وسوف تغير وطنك وبلدك مرات كثيرة بقدر ما يملي ذلك خيالك؛ وسوف تثمل بالشهوات، دون ملل، في بلاد فاتنة حيث الجو دافئ دائماً وحيث النساء لهن رائحة زكية كرائحة الأزهار، - الخ، الخ. . .» أضاف وهو ينهض ويودعني بابتسامة سارة.

ولولا أنني خشيت من تحريك تواضعه أمام هذا الجمع الغفير، لسجدت عن طيب خاطر عند قدمي هذا المقامر الكريم شاكراً له سخاءه الذي لم يسمع بمثله قط. إلا أنه شيئاً فشيئاً، بعد أن فارقته، عاد إلى صدري الشك الذي لا علاج له؛ ولم يعد بوسعي أن أصدق مثل هذه السعادة الهائلة، وإذ رقدت استعداداً للنوم، معاوداً صلاتي بحكم بقية من عادة بلهاء، كررت في شبه نعاس: «إلهي! مولاي، إلهي! أرجوك أن تعمل على أن يفي الشيطان لي بوعده!».

XXX
الحبل

إلى إدوار مانيه

قال لي صاحبي: «ربما كانت الأوهام لا تحصى كعلاقات البشر فيما بينهم، أو كعلاقات البشر بالأشياء. وعندما يتلاشى الوهم، أي عندما نرى الكائن أو الحدث كما هو موجود خارجنا، نستشعر إحساساً غريباً، هو مزيج من الأسف على الشبح الزائل ومن الدهشة السارة حيال الجدة، حيال الحدث الفعلي. وإذا كانت هناك ظاهرة واضحة، عادية، متشابهة دائماً، وذات طبيعة من المستحيل على المرء أن يخطئ تمييزها، فهي ظاهرة حب الأم لأبنائها. ومن الصعب تخيل أم دون حب لأبنائها صعوبة تخيل ضوء دون حرارة؛ وأليس من المشروع تماماً والحال كذلك أن نُرجع إلى حب الأم لأبنائها كل أفعال وكلمات أم، متصلة بابنها؟ ومع ذلك، استمع إلى هذه الحكاية القصيرة التي خدعت فيها على نحو فريد بالوهم الأكثر طبيعية.

«إن مهنتي كرسام تدفعني إلى النظر بانتباه إلى الوجوه،

السحنات التي تظهر في طريقي، وأنت تعرف مدى المتعة التي نستمدها من هذه الملكة التي تجعل الحياة في أعيننا أكثر حيوية وأبلغ دلالة مما هي الحال بالنسبة للناس الآخرين. وفي الحي البعيد حيث أقيم وحيث ما تزال مساحات خضراء واسعة تفصل بين البنايات، غالباً ما راقبت صبياً أغرتني قبل كل شيء سحنته الحيوية والعفريتية بشكل يفوق كل السحنات الأخرى. وقد جلس أمامي أكثر من مرة لكي أرسمه، فحولته تارة إلى بوهيمي صغير وتارة أخرى إلى ملاك، وتارة ثالثة إلى حب ميثولوجي. وجعلته يحمل كمان الصعلوك وتاج الأشواك ومسامير الآلام ومشعل إيروس. ومن كل غرابة وطرافة هذا الصبي، حصلت أخيراً على مسرة جد مفعمة بالحيوية بحيث إنني رجوت ذات يوم والديه، وهم ناس فقراء، أن يتركاه لي، واعداً بأن أحسن كساءه وبأن أعطيه قدراً من المال وبألا أفرض عليه مشقة سوى مشقة تنظيف ريشاتي وأداء الخدمات التي أحتاج إليها. والحال أن هذا الصبي، وقد اغتسل، قد أصبح فاتناً، أما الحياة التي عاشها عندي فقد بدت له فردوساً، مقارنة بالحياة التي كان يكابدها في كوخ والديه القذر. لكنني يجب أن أقول إن هذا الصبي كان يدهشني أحياناً بأزمات حزن مبكر غريبة كانت تنتابه، وأنه سرعان ما أبدى ميلاً مسرفاً جداً إلى تناول السُكر والمشروبات الروحية بحيث إنني، حين رصدت ذات يوم أنه، بالرغم من تحذيراتي العديدة، قد عاد إلى اختلاس جديد من

هذا النوع، هددته بإعادته إلى والديه. ثم خرجت وأبقتني شواغلي خارج بيتي وقتاً طويلاً.

«وما أفدح رعبي ودهشتي لدى عودتي إلى البيت حيث كان أول ما شد بصري هو فتاي، رفيق حياتي العفريت، الذي كان معلقاً بقائم هذا الدولاب! كانت قدماه تكادان تلمسان الأرضية؛ وإلى جواره كرسي مقلوب، لا شك أنه كان قد ركله بقدمه؛ وكانت رأسه مائلة في اختلاج على كتفه؛ أما وجهه المتورم وعيناه المفتوحتان عن آخرهما بشخوص مريع، فقد أوهمتني في البداية بأنه مازال حياً. ولم يكن إنزاله مهمة جد سهلة كما قد تتصور. كان قد أصبح بالفعل متصلباً جداً، وقد استشعرت نفوراً يتعذر تفسيره من إسقاطه مرة واحدة على الأرضية. وكان يتعين أن أسنده كله بذراع وأن أقطع الحبل بيد الذراع الأخرى. لكنني بعد أن فعلت ذلك، لم يكن الأمر قد انتهى؛ فالوحش الصغير كان قد استخدم خيطاً بالغ الدقة انغرز انغرازاً عميقاً في اللحم، وكان يتعين الآن البحث، بمقص دقيق، عن الحبل بين حويتي التورم، لتخليص رقبته.

«فاتني أن أقول لك إنني طلبت العون بقوة؛ لكن جميع جيراني رفضوا المجيء لمساعدتي، أوفياء في ذلك لعادات الإنسان المتحضر الذي لا يريد البتة، لأسباب لا أعرفها، التدخل في شئون مشنوق. وأخيراً جاء طبيب أعلن أن الصبي

ميت منذ عدة ساعات. وعندما أقدمنا، بعد ذلك، على خلع ملابسه استعداداً لتكفينه، كانت صلابة الجثة شديدة بحيث إننا اضطررنا، يائسين من ثني الأعضاء، إلى تمزيق وقطع الثياب لتجريده منها.

«أما مأمور الشرطة الذي كان عليَّ بالطبع إبلاغه بالحادث، فقد نظر إلي شذراً وقال: «هذا شيء مريب!»، مدفوعاً دون شك برغبة متأصلة وبعادة مهنية في بث الخوف، مهما حدث، في صدور الأبرياء والمذنبين على حد سواء.

«بقيت مهمة كبرى يتعين إنجازها، كان من شأن مجرد التفكير فيها أن سبب لي كرباً رهيباً: لقد كان يتعين إبلاغ الوالدين. وقد رفضت قدماي السير بي إلى هناك. وأخيراً واتتني تلك الشجاعة. لكن الأمر الذي أثار عظيم استغرابي أن الأم تقبلت الخبر بهدوء أعصاب ولم تفر دمعة من أماق عينيها. وقد أرجعت هذا الأمر الغريب إلى الهلع نفسه الذي لابد أنها قد كابدته، وتذكرت العبارة المعروفة: «الآلام الأكثر فظاعة هي الآلام الخرساء». أما فيما يتعلق بالأب، فقد اكتفى بالقول بنبرة شبه مخبولة، شبه حالمة: «على أية حال، ربما كان من الأفضل أنه انتهى بهذه الطريقة؛ فقد كان مقدراً له دائماً أن ينتهي نهاية سيئة!».

«وبينما كان الجسد ممدداً على أريكتي وكنت منشغلاً

بالاستعدادات الأخيرة، تساعدني خادمة، دخلت الأم إلى مرسمي. وقالت إنها تريد رؤية جثمان ابنها. والحق إنني لم يكن بوسعي أن أمنعها من السكر بيلواها وأن أحرمها من هذا العزاء الأخير والكئيب. ثم رجتني أن أريها المكان الذي شنق فيه صغيرها نفسه. فأجبتها: «أوه! لا! سيدتي، هذا سوف يحزنك». وبما أن عيني قد اتجهتا بشكل لا إرادي نحو الدولاب الكئيب، فقد رأيت، بنفور ممتزج بالرعب والسخط، أن المسمار قد ظل مثبتاً في الواجهة، حيث كان مازال يتدلى طرف طويل للحبل. فاندفعت بقوة لنزع هذه الآثار الأخيرة للمصيبة، وبما أنني كنت بسبيلي إلى رميها إلى الخارج عبر النافذة المفتوحة، فقد أمسكت المرأة البائسة بذراعي وقالت لي بصوت لا يقاوم: «أوه! سيدي! أترك لي هذا! أرجوك! أتوسل إليك!». وبدا لي أن استماتتها قد أصابتها، لا شك، بجنون فادح بحيث إنها قد تعلقت الآن في رقة بهذا الشيء الذي كان وسيلة موت ابنها وأرادت الاحتفاظ به كأثر مريع وعزيز. - وانتزعت المسمار والخيط.

«وأخيراً! أخيراً! تم إنجاز كل شيء. ولم يبق بعد إلا أن أعود إلى العمل، بشكل أنشط بكثير من المعتاد، حتى أطرد شيئاً فشيئاً هذه الجثة الصغيرة التي تلازم أغوار رأسي والتي يؤرقني شبحها بعينيه الواسعتين الشاخصتين. لكنني تلقيت في

صباح اليوم التالي رزمة من الرسائل: بعضها من مستأجري المنزل الذي أسكن فيه، وبعضها الآخر من البيوت المجاورة، واحدة من الطابق الأول؛ وثانية من الطابق الثاني؛ وثالثة من الطابق الثالث، وهلم جرا، بعضها مكتوب بأسلوب شبه ممتع، وكأنها تحاول أن تخفى تحت ستار من الدعابة الظاهرية صدق الطلب، وبعضها الآخر سفيه بشكل فادح ويعوزه ضبط الإملاء، لكنها كلها ترمى إلى هدف واحد، هو الحصول مني على قطعة من الحبل المشؤوم وجالب البهجة. ويجب أن أقول إنه كان بين الراسلين نساء أكثر من الرجال؛ لكن الجميع، صدقني، لم يكونوا ينتمون إلى طبقة عديمي الشأن والعوام. وقد احتفظت بهذه الرسائل.

«وعندئذ، لمعت بارقة في رأسي فجأة، وأدركت لماذا تمسكت الأم بأن تنتزع مني الخيط وبأي تعامل أرادت السلوان».

■ ■ ■

XXXI
المصائر

في حديقة جميلة حيث بدت أشعة شمس خريفية وكأنها تتهادى حيال المتعة، تحت سماء مخضرة بالفعل حيث راحت تتموج سحب ذهبية كقارات مسافرة، أخذ أربعة أطفال وسيمون، أربعة صبيان، يتحدثون فيما بينهم، بعد أن سئموا من اللعب لا ريب.

قال أحدهم: «أمس أخذوني إلى المسرح. في قصور عظيمة وحزينة، يرى المرء في خلفياتها البحر والسماء، راح رجال ونساء، جادون وحزاني أيضاً، لكنهم أجمل بكثير وأفضل لباساً بكثير من أولئك الذين نراهم في كل مكان، راحوا يتكلمون بصوت رخيم. كانوا يتبادلون التهديدات ويتضرعون ويتأسفون، وغالباً ما كانوا يسندون أيديهم على خنجر مغروز في زنارهم. آه! كان ذلك جميلاً جداً! كانت النساء أجمل بكثير وأعظم بكثير من أولئك اللاتي يجئن لزيارتنا في البيت، ومع أنهن بأعينهن الواسعة الغائرة وبوجناتهن المتأججة كن مريعات المظهر، إلا أن المرء لم يكن بوسعه

الامتناع عن أن يحبهن. يخاف المرء، ويشتهي البكاء، لكنه يشعر بالرضى... ثم إن ما كان فريدا هو أن ذلك يجعل المرء يشتهي ارتداء الملابس نفسها وأن يقول ويفعل الأشياء نفسها وأن يتكلم بالصوت نفسه...».

فجأة، قال طفل من الأطفال الأربعة، كان منذ ثوان قد توقف عن الاستماع إلى كلام رفيقه وراح ينظر نظرة شاخصة غريبة إلى ما لا أدري أية نقطة في السماء: «انظروا، انظروا هناك... هل ترونه؟ إنه جالس على تلك السحابة الصغيرة المنفردة، تلك السحابة الصغيرة التي بلون النار، التي تتهادى. هو أيضاً، يبدو أنه ينظر إلينا».

تساءل الآخرون: «ولكن من يكون إذاً؟». أجاب بنبرة يقين لا تشوبها شائبة: «الرب! آه! لقد أصبح بعيداً بالفعل: سريعاً، لن يكون بوسعكم بعد رؤيته. لا ريب أنه مسافر، لزيارة بلاد أخرى. انتظروا، إنه سوف يمر وراء ذلك الصف من الأشجار الذي يكاد يكون عند خط الأفق... والآن يهبط خلف برج الأجراس... آه! لم يعد بالإمكان رؤيته!». وإلى الجهة نفسها، ظل الطفل ملتفتاً لوقت طويل، مثبتاً على الخط الذي يفصل الأرض عن السماء عينين يلمع فيهما تعبير لا سبيل إلى تفسيره عن النشوة والأسف.

عندئذ قال الثالث، الذي كان كل شخصه الصغير متميزاً

بنباهة وحيوية فريدتين: «أهو غبي هذا بربه الطبيب الذي لا يمكن إلا له وحده أن يراه! أنا سوف أحكي لكم كيف حدث لي شيء لم يحدث لكم قط وهو أكثر إثارة إلى حد ما من مسرحكم ومن سحاباتكم. ـ قبل عدة أيام، أخذني والداي في رحلة معهما، وبما أنه لم يكن في النُزُل الذي نزلنا فيه ما يكفي من الأسرّة لنا كلنا، فقد تقرر أن أنام في سرير واحد مع مربيتي. ـ وجذب رفاقه بالقرب منه وقال بصوت أكثر انخفاضاً. ـ «ألاّ ترقد بمفردك وأن تكون في سرير مع مربيتك، في العتمات، هذا له أثر فريد. وبما أنني لم أنم، فقد استمتعت، خلال نومها، بتمرير يدي على نهديها، وعلى رقبتها وعلى كتفيها. كان نهداها ورقبتها أكبر بكثير من نهود ورقاب جميع النساء الأخريات، وكانت بشرتها جد ناعمة، جد ناعمة، بحيث إنه بدا وكأنها من ورق الرسائل أو من ورق من حرير. وقد استمتعت بذلك كثيراً بحيث إنني كان من الممكن أن استمر لوقت طويل، لولا أنني كنت خائفاً، خائفاً من إيقاظها أولاً، ثم خائفاً أيضاً مما لا أدري ما هو. ثم دفنت رأسي في شعرها الذي استرسل على ظهرها، كثيفاً كعرف الخيل، وأؤكد لكم أن رائحته كانت شذية كرائحة أزهار الحديقة، في هذه الساعة. حاولوا، عندما يتسنى لكم ذلك، أن تفعلوا مثل ما فعلت، وسوف ترون!».

والحال أن الصبي صاحب هذا الكشف الخارق كانت عيناه، وهو يحكي حكايته، جاحظتين في نوع من الذهول مما كان ما يزال يستشعره، ثم إن أشعة الشمس الغاربة، وهي تنساب عبر الخصلات الشقراء لشعره المشعث قد أضاءتها كهالة سولفورية من الهوى. وكان من السهل تخمين أن هذا الصبي قد لا يضيع حياته في البحث عن الرب في السحب وقد يجدها غالباً في أماكن أخرى.

وأخيراً قال الرابع: «تعرفون أنني قلما أستمتع في البيت؛ فلا أحد يأخذني البتة إلى المسرح؛ ووليي أمري شحيح جداً؛ والرب لا يهتم بي ولا بسأمي، وليست لي مربية جميلة لتدللني. وغالباً ما بدا لي أن متعتي سوف تكون في أن أمشي دائماً قدامي مباشرة، دون أن أعرف إلى أين، ودون أن ينزعج أحد من ذلك، وأن أرى دائماً بلاداً جديدة. لم أكن قط على ما يرام في أي مكان ودائماً ما أتصور أنني سوف أكون أفضل في مكان غير المكان الذي أنا فيه. حسناً! لقد رأيت في السوق الكبرى الأخيرة في القرية المجاورة ثلاثة رجال يعيشون كما أود أن أعيش. أنتم لم تنتبهوا إليهم. كانوا طوالاً، شبه سود، جد فخورين، مع أن ثيابهم رثة، وكان مظهرهم يوحي بأنهم غير محتاجين لأحد. أما عيونهم الواسعة الكابية فقد أصبحت لامعة تماماً عندما أخذوا يعزفون الموسيقى؛ وهي موسيقى جد مدهشة بحيث إنها تثير تارة الرغبة في الرقص، وتارة أخرى

الرغبة في البكاء، أو هذه وتلك معاً في آن واحد، وبحيث إن المرء يصبح كالمجنون لو استمع إليها طويلاً. أحدهم، وهو يسحب قوسه على كمانه، بدا أنه يحكي عن كرب، والآخر، وهو ينطط مقرعته الصغيرة على أوتار برقة صغيرة معلقة في رقبته بحزام، كان له مظهر من يسخر من شكوى جاره، بينما راح الثالث من آن لآخر يدق صنجيه النحاسيين بعنف غير عادي. وكانوا جد راضين عن أنفسهم بحيث إنهم واصلوا عزف موسيقاهم الوحشية حتى بعد أن تفرق الجمع. وأخيراً جمعوا ملاليمهم وحملوا أغراضهم على ظهورهم ورحلوا. ولما كنت أود أن أعرف أين يقيمون، فقد سرت في أثرهم عن بعد، حتى حافة الغابة، حيث أدركت آنذاك فقط أنهم لا يقيمون في أي مكان.

«عندئذ قال أحدهم: «هل يجب نشر الخيمة؟ فرد الآخر: كلا بالتأكيد! هذه ليلة طقسها جميل جداً!».

«وقال الثالث وهو يعد الإيراد: هؤلاء الناس لا يحسون بالموسيقى، ونساؤهم يرقصن كالدببة. من حسن الحظ أننا قبل مضي شهر سوف نكون في النمسا، حيث سنجد شعباً أجمل».

«وقال واحد من الاثنين الآخرين: ربما كان من الأفضل لنا أن نتجه إلى أسبانيا، فالشتاء يزحف؛ لنهرب قبل الأمطار ولا نبلّن غير حلقومنا».

«لقد حفظت كل ما قالوا، كما ترون. ثم شرب كل واحد

منهم طاساً من العرق ورقدوا للنوم ووجوههم متجهة نحو النجوم. وقد روادتني الرغبة في البداية في أن أرجوهم أن يأخذوني معهم وأن يعلموني العزف على آلاتهم؛ لكنني لم أجرؤ على ذلك، لا ريب لأن من الصعب جداً دائماً اتخاذ قرار حاسم حيال أي شيء، وكذلك لأنني خفت أن يدركني أهلي قبل أن أكون خارج فرنسا».

والحال أن مظهر قلة الاهتمام من جانب الرفاق الثلاثة الآخرين قد دفعني إلى الاعتقاد بأن هذا الصغير هو بالفعل غير مفهوم. تأملته بانتباه؛ وكان في عينيه وفي وجهه ما لا أدري أي نضج مبكر قاتل يؤدي عموماً إلى إبعاد التعاطف بينما أثار، لا أدري لماذا، تعاطفي، إلى الدرجة التي خامرتني عندها للحظة فكرة غريبة مؤداها أنه قد يكون لي أخ غير معروف لي أنا نفسي.

كانت الشمس قد غربت. وحل محلها الليل المهيب. وتفرق الصبيان، فمضى كل واحد منهم، دون أن يدري، بحسب الظروف والمصادفات، إلى صياغة مصيره وإثارة استنكار ذويه والانجذاب إلى المجد أو إلى العار.

■ ■ ■

XXXII
صولجان باخوس

إلى فرانز ليست

ما هو الصولجان؟ بحسب المعنى الروحي والشعري، هو رمز كهنوتي في أيدي الكهنة والكاهنات الذين يمجدون الإله الذي يتحدثون بلسانه ويخدمونه. أما من الناحية المادية فهو ليس أكثر من عصا، عصا خالصة، دعامة لحشيشة الدينار، عصا ساندة للكرمة، يابسة وصلبة ومستقيمة. وحول هذه العصا، في تعرجات عشوائية، تلعب وتمرح سيقان وأزهار، هذه تتلوى وتهرب وتلك تميل كأجراس أو كأقداح مقلوبة. ومن هذا التركيب للخطوط والألوان، الرقيقة أو الصارخة، تنبثق هالة مدهشة. ألا يمكن أن يقال إن الخط المنحني واللولب يغازلان الخط المستقيم ويرقصان حوله في عشق صامت؟ ألا يمكن أن يقال إن جميع هذه التويجات الناعمة، جميع كؤوس الزهور هذه، انفجارات الروائح والألوان، تؤدي طقس رقصة فاندانجو حول تلك العصا الكهنوتية؟ وعلى أية حال، من هو الفاني الطائش الذي يجرؤ على قول ما إذا كانت

الأزهار والزينة قد خلقت لأجل العصا أم أن العصا ليست غير ذريعة لإبداء جمال الزينة والأزهار؟ إن الصولجان هو تمثيل لازدواجيتك المدهشة، أيها السيد القوي والمبجل، عزيزي باخوسيّ الفتنة الملغزة والهائمة. لم يحدث قط أن قامت حورية أثار حنقها باخوس الذي لا يقهر بهز صولجانها على رؤوس رفيقاتها الممسوسات بذلك القدر من القوة والهوى الذي تطلق به نبوغك على أفئدة إخوتك. ـ العصا هي إرادتك، المستقيمة الحازمة التي لا تتزعزع؛ والأزهار هي نزهة خيالك حول إرادتك؛ إنها العنصر الأنثوي وهو يؤدي حول الذكر استداراته المهيبة. خط مستقيم وخط متعرج، قصد وتعبير، صلابة الإرادة، التواء الكلمة، وحدة الغاية، تنوع الوسائل، يا مزيج النبوغ الجبار الذي لا يتجزأ، من هو المحلل الذي قد تواتيه الشجاعة الكريهة على تجزئتك وفصل عناصرك؟

عزيزي ليست، عبر الضبابات، وراء الأنهار، فوق المدن حيث تنشد البيانوات نشيد مجدك، وحيث تترجم الطباعة حكمتك، في مكان ما تكون فيه، في إشراقات المدينة الأبدية أو في ضبابات بلاد حالمة يعزيها جامبرينوس، مرتجلاً أغنيات اشتهاء أو أغنيات ألم فائق للوصف، أو مسجلاً على الورق تأملاتك الصعبة، يا منشد الشهوة والعذاب الأبديين، أيها الفيلسوف والشاعر والفنان، أحييك في الخلود!

XXXIII
اسكروا

لابد للمرء من أن يكون سكراناً دائماً. تلك هي الخلاصة: تلك هي القضية الوحيدة. فلكي لا تشعروا بعبء الزمن الفادح الذي يحطم كواهلكم ويحنيكم إلى التراب، لابد لكم من أن تسكروا بلا هوادة.

ولكن بماذا؟ بالخمر أو بالشعر أو بالفضيلة، بحسب ما تهوون. ولكن اسكروا.

وإذا حدث مرة، على سلالم قصر أو على العشب الأخضر لحفرة أو في الوحدة الكئيبة لغرفتك، أن أفقت، لأن السكر قد تراجع أو تبدد بالفعل، اسأل الريح والموجة والنجمة والعصفور والساعة وكل ما يهرب وكل ما يتأوه وكل ما يدور وكل ما يغرد وكل من يتكلم؛ اسأل عن الوقت؛ وسوف تجيبك الريح والموجة والنجمة والعصفور والساعة: «إنه وقت السكر! لكي لا تكونوا عبيداً معذَّبين للزمن، اسكروا؛ اسكروا بلا توقف! بالخمر أو بالشعر أو بالفضيلة، بحسب ما تهوون».

XXXIV
أبهذه السرعة!

مائة مرة بالفعل بزغت الشمس، متألقة أو متألمة، من هذا الحوض الشاسع للبحر الذي لا تكاد تبين ضفافه، مائة مرة غطست ثانية، متقدة أو كابية، في حمامها المسائي الرحيب. منذ عدد من الأيام، كان بوسعنا أن نتأمل الجهة الأخرى للقبة الزرقاء وأن نفك شفرة الأبجدية السماوية للجهة الأخرى من الأرض. كل واحد من المسافرين كان يتأوه ويدمدم. وبدا أن اقتراب اليابسة يزيد من حدة معاناتهم. فراحوا يقولون: «متى إذاً سوف نكف عن النوم نوماً يهزه الموج وتزعجه رياح تهدر أعلى منا؟ متى سوف يكون بوسعنا أن نأكل لحماً ليس مملحاً كالماء الكريه الذي يحملنا؟ متى سوف يكون بوسعنا أن نهضم في مقعد ثابت؟».

كان هناك من يفكرون في أسرهم، من يأسفون لزوجاتهم الخائنات والكريهات وذريتهم الصياحة. كلهم كانوا ممسوسين بصورة الأرض الغائبة بحيث إنهم، في ظني، قد يأكلون العشب بحماسة تفوق حماسة البهائم.

أخيراً ظهر ساحل؛ ورأينا، ونحن نقترب، أننا بإزاء أرض رائعة، فاتنة. وبدا كأن موسيقات الحياة تنبجس منها في همس غامض وأنه من هذه الشطآن، الثرية بالنباتات الخضراء من كل نوع، تفوح رائحة زكية للأزهار وللثمار وتصل إلى مسافة عدة فراسخ.

سرعان ما غمر الحبور الجميع، وتخلى كل واحد عن مزاجه الكدر. ونسيت جميع الشجارات، وغفرت جميع الإساءات المتبادلة؛ ومحيت من الذاكرة جميع المبارزات المتفق عليها، وتبددت الأحقاد كالدخان.

وحدي أنا كنت حزيناً، حزيناً بشكل يفوق التصور. وشبيهاً بكاهن ينتزعون منه إلهه، لم يكن بوسعي، دون مرارة أليمة، أن أنفصل عن هذا البحر مفرط الغواية، عن هذا البحر الذي لا نهاية لتنوعه في بساطته المخيفة، والذي يبدو أنه يحتوي في ذاته ويصور بألعابه وأشكاله وغضبه وابتساماته أمزجة وعذابات وانتشاءات جميع الأنفس التي عاشت والتي تحيا والتي سوف تحيا!

وبينما كنت أقول وداعاً لهذه الفتنة التي لا مثيل لها، أحسست أنني مقهور حتى الموت؛ ولهذا، عندما قال كل واحد من رفاقي: «أخيراً!» لم يكن بوسعي إلا أن أصرخ: «أبهذه السرعة!».

لكنها كانت الأرض، الأرض بصخبها، بأهوائها، برفاهياتها، بأعيادها؛ كانت أرضاً غنية وبهية، عامرة بالوعود، ترسل لنا عطراً غريباً من الورد والمسك، وتصلنا منها موسيقات الحياة في همسة عاشقة.

■ ■ ■

XXXV
النوافذ

ذلك الذي ينظر من الخارج عبر نافذة مفتوحة، لا يرى أبداً من الأشياء قدر ما يراه من ينظر إلى نافذة موصدة. وما من شيء أعمق وأكثر خفاءً وأكثر خصوبة وأكثر عتامة، وأكثر فتنة من نافذة مضاءة بشمعة. وما قد يراه المرء في ضوء الشمس هو دائماً أقل إثارة مما يحدث وراء نافذة. في هذا الثقب الأسود أو المنير تحيا الحياة، تحلم الحياة، تكابد الحياة.

وراء موجات الأسقف، ألمح امرأة ناضجة، متجعدة بالفعل، فقيرة، تميل دائماً على شيء ما، ولا تخرج أبداً. من سيمائها، من ثيابها، من إيماءاتها، من لا شيء تقريباً، أعيد صوغ حكاية هذه المرأة، أو بالأحرى أسطورتها، وأحياناً ما أحكيها لنفسي وأنا أبكي.

ولو كانت رجلاً عجوزاً فقيراً، لأعدت صوغ حكايته بالسهولة نفسها.

أرقد وأعتز بأنني عشت وكابدت في آخرين غيري.

قد تقولون لي: «هل أنت متأكد من أن هذه القصة هي

القصة الحقيقية؟». ما أهمية ما قد يكون عليه الواقع الموجود خارجي، إن كان قد ساعدني على العيش وعلى الإحساس بوجودي وبماهية وجودي؟

■ ■ ■

XXXVI

الرغبة في الرسم

قد يكون الإنسان تعيساً، لكن ما أسعد الفنان الذي تمزقه الرغبة!

أحترقُ بالرغبة في رسم تلك التي ظهرت لي نادراً جداً وهربت سريعاً جداً، كشيء جميل يؤسف لفقده خلف المسافر الذي يعدو في الليل. ما أطول اختفائها بالفعل!

إنها جميلة، وأكثر من جميلة؛ إنها مدهشة. فيها تفيض الحلكة: وكل ما تلهمه ليلى وعميق. عيناها كهفان يلمع اللغز فيهما لمعاناً غامضاً، ونظرتها تضيء كالبرق: إنه انفجار في العتمات.

فلأقارنها بشمس سوداء، إن كان بالإمكان تصور نجم أسود ينشر النور والغبطة. لكنها تذكر بشكل تلقائي أكثر بالقمر، الذي لا ريب في أنه قد ترك عليها أثره المخيف؛ ليس قمر الغزليات الأبيض، الذي يشبه عروساً باردة، بل القمر الخبيث والمسكر، المعلق في قلب ليلة عاصفة والذى تؤرجحه السحب الراكضة؛ ليس القمر الوديع الوقور الذي يزور نعاس الرجال

الأطهار، بل القمر المنتزع من السماء، المغلوب والساخط الذي ترغمه ساحرات تيساليا بقسوة على الرقص على العشب المفزوع!

في جبينها الصغير تسكن الإرادة الثابتة وعشق الفريسة. إلاّ أنه، أسفل هذا الوجه المزعج، حيث يبحث منخاران متحركان عن المجهول والمستحيل، تنفجر، بجمال لا يمكن التعبير عنه، ضحكة فم كبير، أحمر وأبيض، ولذيذ، تجعل المرء يحلم بمعجزة زهرة رائعة نائتة في ساحة بركانية.

هناك نساء يلهمن الرغبة في قهرهن والاستمتاع بهن، لكن هذه المرأة تلهم الرغبة في الموت ببطء تحت نظرها.

■ ■ ■

XXXVII

نِعَمُ القمر

القمر[*]، الذي هو النزوة نفسها، نظر عبر النافذة بينما كنت تنامين في مهدك وقال لنفسه: «هذه الطفلة تروق لي».

وهبط بنعومة سلمه السحابي، ومر دون صخب عبر النافذة. ثم مال عليك بالرقة الرهيفة لأم ونشر ألوانه على محياك. انسانا عينيك من جراء ذلك ظلا خضراوين وظلت وجنتاك شاحبتين بشكل غير عادي. اتسعت عيناك اتساعاً غريباً من تأملهما هذا الزائر؛ وعانقك برقة بالغة بحيث استبدت بك من جراء ذلك رغبة أبدية في البكاء.

لكن القمر، في توسع فرحته، غمر الغرفة كلها، كمحيط هوائي فوسفوري، كسم مضيء؛ وكل هذا الضوء الحي فكر وقال: «سوف تتأثرين إلى الأبد بقبلتي. سوف تكونين جميلة مثلي. وسوف تحبين من أحب ومن يحبني: الماء، السحب، الصمت والليل؛ البحر الواسع والأخضر؛ الماء الذي بلا شكل

(*) القمر والضوء مؤنثان في الفرنسية - م.

محدد ومتعدد الأشكال؛ المكان الذي لن تكوني فيه؛ العاشق الذي لن تعرفيه؛ الأزهار الوحشية؛ العطور التي تؤدي إلى الهذيان؛ القطط التي يغشى عليها فوق البيانوات والتي تتأوه كالنساء، بصوت أبح وعذب!

«وسوف يعشقك عشاقي ويغازلك من يغازلونني. سوف تكونين ملكة رجال ذوي عيون خضراء عانقتهم أيضاً في ملاطفاتي الليلية؛ ملكة من يعشقون البحر، البحر الواسع، الصاخب والأخضر، الماء الذي بلا شكل محدد ومتعدد الأشكال، المكان الذي ليسوا فيه، المرأة التي لا يعرفونها، الأزهار الخبيثة التي تشبه مباخر ديانة مجهولة، العطور التي تكدِّرُ الإرادة والحيوانات المتوحشة والشهوانية التي هي رموز جنونهم».

ولأجل هذا، أيتها الطفلة المدللة العزيزة الملعونة، أرقد الآن عند قدميك، باحثاً في كل شخصك عن انعكاس الإلهة المخيفة، العرافة كاشفة الغيب، المرضعة السامة لجميع المخبولين.

■ ■ ■

XXXVIII
أيهما الحقيقية؟

عرفت واحدة اسمها بينيديكتا كانت تشيع ما هو مثالي في الجو، وكانت عيناها تنشران اشتهاء العظمة والجمال والمجد وكل ما يجعل المرء يؤمن بالخلود.

لكن تلك الفتاة المعجزة كانت جد جميلة بحيث يتعذر أن تحيا طويلاً؛ ومن ثم فقد ماتت بعد أيام قليلة من تعرفي عليها، وأنا نفسي الذي دفنتها، في يوم حَرَّكَ الربيع فيه مبخرته حتى في المدافن. أنا الذي دفنتها، معزولة تماماً في نعش من الخشب المعطر الذي لا يفسد كأحقاق الهند.

وبينما ظلت عيناي مثبتتين على المكان الذي دُفن فيه كنزي، رأيت فجأة كائناً صغيراً يشبه الميتة على نحو فريد، قال لي وهو ينفجر من الضحك، بينما كان يحرك قدميه على التراب النديّ بعنف هستيري وغريب: «إنني بينيديكتا الحقيقية! إنني هي، وغدة شهيرة! وعقاباً لحماقتك ولعماك، سوف تحبني كما أنا!».

لكنني أجبت، غاضباً: «كلا! كلا! كلا!» ولكي أؤكد بشكل

أقوى على رفضي، خبطت الأرض بقدمي خبطاً عنيفاً جداً بحيث إن ساقي انغرزت حتى الركبة في القبر حديث العهد وبحيث إنني كذئب وقع في المصيدة أظل، إلى الأبد ربما، رهين قبر ما هو مثالي.

■ ■ ■

XXXIX

جواد أصيل

دميمة هي تماماً، ومع ذلك فهي عذبة!

الزمن والحب وسماها بمخالبهما ودلاّها بقسوة على ما تنتزعه كل دقيقة وكل قبلة من الشباب والنضارة.

دميمة هي بالفعل؛ فهي نملة، أنثى عنكبوت، بل هيكل عظمي، إن شئتم! لكنها أيضاً شراب، بلسم، رقية! إنها، باختصار، عذبة.

لم يفلح الزمن في كسر التناغم المتألق لمشيتها ولا الرشاقة التي لا تفنى لبنيتها. لم يفسد الحب عذوبة رائحتها الطفولية؛ ولم ينتزع الزمن شيئاً من شعرها الغزير الذي تفوح منه على هيئة عطور وحشية كل حيوية الجنوب الفرنسي الفائرة: نيم، إكس، آرل، آفينيون، ناربون، تولوز، مدن الشمس المباركة، العاشقةُ الساحرة!

بلا طائل نهشها الزمن والحب نهشاً ضارياً؛ فلم يفلحا في اختزال الفتنة الغامضة، ولكن الأبدية، لصدرها الصبياني.

قد تكون مجهدة، لكنها ليست مكدودة، فهي بطولية دائماً،

تذكِّرُ المرء بتلك الجياد عزيزة الأصل التي تميزها عين الهاوي الخبير، أكانت تجر حنطوراً أم عربة نقل ثقيلة.

ثم إنها جد عذبة وجد مشبوبة المشاعر! فهي تحب كما يحب الناس في الخريف؛ ويقال إن مداخل الشتاء تشعل في قلبها ناراً جديدة، وإن الاستسلام لرقتها لا يجر البتة إلى أي سأم.

■ ■ ■

XL

المرآة

رجل بشع يدخل ويتمرى في المرآة.

«لماذا تتمرى في المرآة، وأنت لا يمكنك أن ترى نفسك فيها إلا ويصيبيك الغم؟».

الرجل البشع يجيبني: «سيدي، بحسب مبادئ ثورة ٨٩ الخالدة، فإن الناس كلهم سواسية في الحقوق؛ ومن ثم فمن حقي أن أرى نفسي في المرآة، منشرحاً أو مغتماً، فهذا لا يخص سوى ضميري».

باسم الحس السليم، لاشك أنني كنت على حق؛ أمّا من الناحية القانونية، فإنه لم يخطئ.

■ ■ ■

XLI

الميناء

الميناء مقام جميل لروح متعبة من صراعات الحياة. رحابة السماء، تكويناتُ السحب المتحركةُ، تلوناتُ البحر المتبدلة، بريقُ الفنارات، كلها موشور مناسب بشكل فاتن لإمتاع العيون دون إرهاقها. الهيئاتُ الفارعةُ للسفن، ذات التجهيزات المعقدة، التي يسمها اضطراب الموج بتأرجحات متناغمة، تحفظ في الروح مذاق الإيقاع والجمال. ثم، خاصةً، هناك نوع خفي وأرستقراطي من المتعة لمن لم يعد لديه فضول أو طموح، متعة أن يتأمل، وهو مضطجع في المقصورة العالية أو وهو مستند على حاجز الموج، كل تلك الحركات لمن يرحلون أو لمن يعودون، لمن ما تزال لديهم قوة الإرادة، والرغبة في السفر أو في الثراء.

■ ■ ■

XLII
بورتريهات العشيقات

في صالون صغير للرجال، أقصد في غرفة تدخين متصلة بوكر باذخ للعب القمار، راح أربعة رجال يدخنون ويحتسون الخمر. لم يكونوا بالضبط لا شباناً ولا عجائز، لا وسيمين ولا دميمين؛ لكنهم، عجائز كانوا أم شباناً، كانوا يتميزون بتلك السيماء التي لا يتعذر تمييزها، سيماء من خبروا البهجة طويلاً، كانوا يتميزون بذلك الشيء الذي لا سبيل إلى وصفه والذى لا أعرف ما هو، بذلك الشجن البارد والساخر الذي يقول بوضوح: «لقد عشنا حياة حافلة، ومازلنا نبحث عما يمكننا أن نحبه ونكن له التقدير».

دشن أحدهم الحديث حول موضوع النساء. وكان من شأن عدم الحديث عنهن بالمرة أن يكون أكثر حكمة، إلا أن هناك أناساً واسعي الأفق لا يزدرون، بعد الشرب، الأحاديث المبتذلة. عندئذ يستمع المرء إلى من يتحدث كما لو كان يستمع إلى موسيقى راقصة.

قال ذلك المتحدث: «كل الرجال كانوا من عمر شيريبان:

ذلك هو الزمن الذي يحتضن فيه المرء، دون نفور، ساق أشجار البلوط، نظراً لغياب حوريات الغابات. تلك أولى درجات الحب. وفي المرحلة الثانية، يبدأ المرء في الاختيار. لكن القدرة على التروي قبل حسم الاختيار تخلف بالفعل. عندئذ يبحث المرء بحسم عن الجمال، وبالنسبة لي، سادتي، فإنني أفتخر بأنني قد وصلت، منذ وقت طويل، إلى زمن المرحلة الثالثة الحرج، حيث لا يكفي الجمال نفسه إن لم يكن متبلاً بالعطر والحلي، إلى آخره. بل إنني سوف أعترف بأنني أطمح أحياناً، كما لو إلى سعادة مجهولة، إلى درجة رابعة ما يجب أن ترمز إلى الهدوء المطلق. لكنني، خلال حياتي كلها، ما عدا عمر شيربيان، كنت أكثر حساسية من أي أحد آخر تجاه غباوة النساء المزعجة وتفاهتهن المثيرة للسخط. إن ما أحبه خاصة في الحيوانات هو براءتها. لتحكموا إذاً إلى أي حد كان عليّ أن أعاني على يد عشيقتي الأخيرة.

«كانت ابنة غير شرعية لأحد الأمراء. ومن نافل القول أنها كانت جميلة، وإلا فلماذا اتخذتها عشيقة لي؟ لكنها أفسدت هذه الميزة العظيمة بطموح غير لائق وذميم. كانت امرأة تود دائماً أن تؤدي دور الرجل. «أنت لست رجلاً! آه! لو كنتُ رجلاً! من بيننا نحن الاثنان، أنا الرجل!». تلك كانت الكلمات المكررة التي لا تحتمل والتي كانت تخرج من ذلك الفم الذي

لم أرغب في أن تخرج منه محلقة غير الأغنيات. وبشأن كتاب أو قصيدة أو أوبرا سمحت بأن يند عني إعجاب بها، كانت تقول على الفور: «لعلك تعتقد أن ذلك جد قوي؟ وهل أنت قادر على أن تحكم على نفسك حكماً صارماً؟». وكانت تجادل.

وذات يوم، بدأت تنكب انكباباً شديداً على دراسة الكيمياء، بحيث إنني وجدت منذ ذلك الحين بين فمي وفمها ستاراً من زجاج. وعلاوة على كل ذلك، كانت امرأة مفرطة الاحتشام. ولو حدث أحياناً وفاجأتها بايماءة عشق مسرفة إلى حد ما، كانت تتشنج كمعْتَصَبَة شديدة الحساسية...

قال أحد الثلاثة الآخرين: وكيف انتهى ذلك؟ لا أعرف عنك أنك طويل الصبر.

فاستأنف قائلاً: الرب يجعل الدواء في الداء. ذات يوم وجدت هذه المنيرفا، التواقة إلى القوة المثالية، في خلوة مع خادمي، وفي وضع أرغمني على الانسحاب دون أن يشعرا بذلك حتى لا أخجلهما. وفي المساء صرفتهما معاً بعد أن دفعت لهما متأخرات أجريهما.

استأنف المقاطع: «بالنسبة لي، ليس هناك من أشكوه سوى نفسي. فقد جاءت السعادة لكي تقيم معي، لكنني لم أتعرف عليها. في هذه الفترة الأخيرة، كان القدر قد وهبني الاستمتاع

بامرأة كانت الأكثر عذوبة والأكثر استسلاماً والأكثر اخلاصاً بين المخلوقات، وكانت مستعدة دائماً! ودون حماس! «بلى، أريد ذلك تماماً، لأنه على هواك»، ذلك كان جوابها المعتاد. لكنكم لو ضربتم بالعصا هذا الجدار أو هذه الأريكة لانتزعتم منهما تأوهات أكثر من تلك التي تنتزعها من عشيقتي فورانات الحب الأكثر جنوناً. بعد سنة من حياتنا المشتركة، اعترفت لي بأنها لم تعرف المتعة قط. فنفرت من هذه المباراة غير المتكافئة، ثم تزوجت تلك الفتاة التي لا مثيل لها. وفيما بعد، راودتني رغبة في لقائها، وعندما حدث ذلك قالت لي وهي تشير إلى ستة أطفال وسيمين: «حسناً! صديقي العزيز، إن الزوجة ما تزال عذراء كما كانت عشيقتك». لم يكن شيء قد تغير في هذه الإنسانة. وأحياناً ما أندم على فراقها: كان على أن أتزوجها».

غرق الآخرون في الضحك، وقال ثالث بدوره:

«يا سادة، لقد عرفت متعاً لعلكم تكونون قد أهملتموها. أقصد الهزلي في الحب، وهو هزلي لا يتنافى مع الإعجاب. لقد أعجبت بعشيقتي الأخيرة اعجاباً أظن أنه يفوق قدرتكم على كراهية أو حب عشيقاتكم. وقد أعجب الجميع بها قدر اعجابي أنا بها. فعندما كنا ندخل مطعماً، كان الجميع، بعد بضع دقائق، ينسون الأكل ويأخذون في تأملها. بل إن الجرسونات

والسيدة المسئولة عن الخزينة كانوا يستشعرون تلك النشوة المعدية إلى درجة نسيان واجباتهم. باختصار، عشت بعض الوقت في صحبة ظاهرة حية. لقد كانت تأكل وتلوك وتمضغ وتلتهم وتبتلع ولكن بالمظهر الأكثر رشاقة والأكثر لامبالاة في العالم. وهكذا أبقتني لفترة طويلة في حال من النشوة. وكان لها أسلوب عذب وحالم، انجليزي وخيالي، في قول: «أنا جائعة!». وكانت تكرر هاتين الكلمتين نهاراً وليلاً وهي تبدي أجمل أسنان في العالم من شأنها اثارة شفقتكم وطربكم في آن واحد. كان بإمكاني أن أكون ثروتي بعرضها في الأسواق كوحش له أكثر من بلعوم. وقد أحسنت اطعامها؛ ومع ذلك فقد هجرتني...

- لكي تذهب إلى مورد أغذية، لا ريب!

- تقريباً، يبدو أنها ذهبت إلى مستخدم في الإدارة العسكرية بوسعه، عبر اختلاسات يجيدها، أن يزود هذه المسكينة بجراية عدة جنود. هذا على الأقل هو ما افترضته...

فقال الرابع: «أما أنا فقد كابدت عذابات فظيعة بضد ما يؤخذ عادة على الكائن الأناني الأنثوي. أيها الفانون المحظوظون، إنني أجدكم غير محقين في الشكوى من عيوب عشيقاتكم!».

قيل هذا بنبرة جد جادة، من رجل له مظهر عذب ورصين،

وله سيماء تكاد تكون اكليركية، مضاءة للأسف بعينين رماديتين فاتحتين، بهاتين العينين اللتين تقول نظرتهما: «أريد!» أو «يجب!» أو أيضاً: «إنني لا أغفر أبداً!».

«لو أنك يا جـ...، العصبي كما أعرفك، لو أنكما أنتما الاثنان، ك... وجـ... الخوافان والخفيفان كما أنتما في الواقع، لو أنكم كنتم اقترنتم بامرأة معينة عرفتها، لهربتم أو لكنتم في عداد الأموات. أما أنا فقد نجوت، كما ترون. تخيلوا امرأة غير قادرة على اقتراف خطأ في الشعور أو في التقدير؛ تخيلوا صفاء شخصية محزناً؛ اخلاصاً بلا تصنع وبلا تشدق؛ عذوبة بلا ضعف؛ قوة دون عنف. إن قصة حبي تشبه رحلة لا نهاية لها على سطح نقي وأملس، كمرآة، رتيبة بشكل مدوخ، من شأنها أن تعكس كل مشاعري وكل ايماءاتي، بالدقة المفارقة لوعيي الخاص، بحيث لا يمكنني أن أسمح لنفسي بايماءة أو بشعور أخرق دون أن أستشعر على الفور التوبيخ الصامت من جانب شبحي الذي لا ينفصل عني. لقد بدا الحب لي كوصاية. فما أكثر الحماقات التي منعتني من ارتكابها، والتي أشعر بالأسف لأنني لم أرتكبها! وما أكثر الديون التي دفعتها بالرغم مني! لقد حرمتني من جميع المغانم التي كان من الممكن أن استخلصها من حماقتي الشخصية. وبقاعدة باردة ولا سبيل إلى تخطيها، أقامت سداً في وجه جميع نزواتي.

وزيادة في الرعب، لم تكن تطلب اعترافاً، مع زوال الخطر. كم من مرة لم أقدر على منع نفسي من الإمساك بخناقها، صائحاً في وجهها: «كوني إذاً غير مثالية، أيتها البائسة! حتى أتمكن من حبك دون ضيق ودون سخط». وعلى مدار عدة سنوات، احترمتها والقلب مليء بالكراهية. وأخيراً، لم أكن أنا من مات من جراء ذلك!».

قال الآخرون: آه! إذاً ماتت هي؟

- نعم! لم يكن بإمكان الأمور أن تستمر هكذا. كان الحب قد أصبح بالنسبة لي كابوساً مضنياً. الغلبة أو الموت، كما تقول السياسة، ذلك كان الخيار الذي فرضه علي القدر! ذات مساء، في غابة... على شاطئ بحيرة... بعد نزهة محزنة، حيث كانت عيناها تعكس، لها، عذوبة السماء، وحيث كان قلبي، لي، منقبضاً كالجحيم...

- ماذا؟

- كيف؟

- ماذا تقصد؟

- لقد كان ذلك حتمياً. خامرني شعور قوي بعدالة أن أضرب أو أهين أو أصرف خادماً لا مأخذ عليه. إلا أنه كان لابد من توفيق هذا الشعور مع الرعب الذي بثه هذا الكائن في صدري؛ التخلص من هذا الكائن دون حرمانه من الاحترام. وماذا كنتم تريدون مني أن أفعل بها وقد كانت مثالية؟

نظر الرفاق الثلاثة الآخرون إلى هذا الأخير نظرة ملتبسة ومخبولة خبلاً خفيفاً وكأنهم يتظاهرون بأنهم لا يفهمون وكأنهم يعترفون ضمنياً بأنهم لا يشعرون، فيما يخصهم، أنهم قادرون على فعل صارم كهذا، وإن كان مفهوماً بما يكفى من جهة أخرى.

ثم طلبوا زجاجات خمر جديدة لكي يقتلوا الوقت الذي يجعل الحياة جد قاسية ولكي يزيدوا سرعة الحياة التي تنساب بهذا البطء الشديد.

■ ■ ■

XLIII
الرامى المهذب

بما أن العربة قد اخترقت الغابة، فقد أوقفها قرب مرمى، قائلاً إنه سوف يكون من المناسب له إطلاق بعض الرصاصات لقتل الوقت. قتل هذا الوحش، أليس ذلك هو الشاغل الأكثر عادية والأكثر شرعية لكل إنسان؟.. ومد يده برقة إلى زوجته العزيزة، اللذيذة والكريهة، إلى تلك المرأة المحيرة التي يدين لها بالكثير من المسرات وبالكثير من الآلام وربما أيضاً بجانب عظيم من عبقريته.

ضربتْ عدةُ رصاصات بعيداً عن الهدف المقصود، بل إن واحدة منها قد اخترقت السقيفة؛ وبما أن المخلوقة الجميلة قد ضحكت بجنون، ساخرة من عدم براعة زوجها، فقد التفت إليها فجأة وقال: انظري إلى تلك الدمية، هناك، جهة اليمين، تلك التي تشمخ بأنفها في الجو، ذات السيماء شديدة العجرفة. حسنا! ملاكي العزيز، إنني أتخيل أنها أنت. وأغمض عينيه وأطلق الزناد. فتمزقت رأس الدمية تماماً.

عندئذ مال على امرأته العزيزة، اللذيذة، الكريهة،

ملهمته التي لا مفر منها والتي لا ترحم، وقبل يدها في احترام وأضاف: «آه! يا ملاكي العزيز، لكم أشكرك على براعتي!».

■ ■ ■

XLIV

الحساء والسحب

محبوبتي الحمقاء الصغيرة دعتني إلى العشاء، وعبر النافذة المفتوحة لحجرة المائدة تأملتُ الأشكال المتحركة التي يصوغها الربُّ بالأبخرة، الأشكال الرائعة لما لا يُحسُّ. وقلت لنفسي، عبر تأملاتي: «كل هذه المشاهد الخارقة جميلة ورحبة جمال ورحابة عيني محبوبتي الجميلة، الحمقاء الصغيرة البشعة ذات العينين الخضراوين».

وفجأة تلقيتُ ضربة عنيفة في ظهري، وسمعتُ صوتاً أجشاً وفاتناً، صوتاً هستيرياً وكأن شراب ماء الحياة قد أبَحَّهُ، صوت محبوبتي الصغيرة العزيزة التي قالت: «ألا تسارع إلى تناول حسائك، أيها الغلام المقدَّسُ لتاجر السحب؟».

■ ■ ■

XLV

المرمى والجبانة

حانة منظر الجبانة - قال منتزهنا «لافتة فريدة، لكنها مناسبة تماماً لأن يشعر المرء بالظمأ! ومن المؤكد أن صاحب هذه الحانة قادر على تقدير هوراس والشعراء تلامذة أبيقور. بل ربما كان يعرف الرهافة العميقة للمصريين القدماء الذين كانوا يرون أن المأدبة لا تكون فاخرة من غير هيكل عظمي، أو من غير رمز ما لقصر الحياة».

ثم دخل، وشرب كأساً من البيرة قبالة المقابر ودخن سيجاراً ببطء. ثم استولت عليه الرغبة في الهبوط إلى هذه الجبانة، التي كان عشبها عالياً جداً وشديد الإغراء، بينما كانت شمس ثرية جداً تهيمن على المكان.

الواقع إن الضوء والحرارة كانا مضطرمين هناك، وكان بالإمكان القول إن الشمس السكرى تتمدد مسترخية بكل طولها على بساط من الأزهار الرائعة التي تخصبت من الفناء. كان هدير ضخم للحياة يملأ الجو - حياة الأشياء الصغيرة إلى أبعد حد، - تقطعه على فواصل زمنية منتظمة فرقعة طلقات نارية من

مرمى مجاور، كانت تدوي كانفجار سدادات الشمبانيا في طنين سيمفونية خفية.

عندئذ، تحت الشمس التي سخنت دماغه وفي مناخ عطور الموت المحتدمة، سمع صوتاً يهمس تحت المقبرة التي كان جالساً عليها. وكان هذا الصوت يقول: «اللعنة على مراميكم وغداراتكم، أيها الأحياء المزعجون، الذين قلما تهتمون بالموتى وبراحتهم المقدسة؛ اللعنة على طموحاتكم، اللعنة على حساباتكم، أيها الفانون نافدو الصبر، الذين يجيئون لدراسة فن القتل في محراب الموت! لو علمتم مدى سهولة الفوز بالثمن، ومدى سهولة الوصول إلى الغاية، وإلى أي حد يعد كل شيء عدماً، ماعدا الموت، لما أرهقتم أنفسكم كل هذا الارهاق، أيها الأحياء الذين يجرون جري الوحوش، ولما أزعجتم كثيراً رقاد أولئك الذين راهنوا منذ زمن بعيد على الغاية، الغاية الحقيقية الوحيدة للحياة المقيتة!».

■ ■ ■

XLVI

ضياع الهالة

«إيه! عجباً! أنت هنا يا عزيزي؟ أنت، في مكان موبوء! أنت، شارب الجواهر! أنت، آكل الرحيق! الحق إن في ذلك ما يدهشني.

ـ عزيزي، أنت تعرف رعبي من الجياد والعربات. منذ قليل، بينما كنت أعبر الطريق، بسرعة قصوى، وأحجل في الوحل، عبر هذه الفوضى المتحركة حيث يصل الموت بسرعة من جميع الجهات في آن واحد، انزلقت هالتي من على رأسي، في حركة مفاجئة، وسقطت في وحل الطريق المرصوف بالحصباء. لم تواتني الشجاعة لالتقاطها، وقد رأيت أن ضياع ما يدل على مكانتي أهون من تحطيم عظامي. ثم إنني قلت لنفسي رب ضارة نافعة. فبوسعي الآن أن أتجول دون أن يتعرف عليّ أحد، وأن أرتكب الأفعال الحقيرة وأن أستسلم للفجور، كالفانين العاديين. وهأنذا كما ترى، أشبهك تماماً.

ـ يجب على الأقل أن تعلن عن ضياع هذه الهالة أو أن تطلب من مأمور الشرطة البحث عنها.

- كلا بالتأكيد! إنني هنا على ما يرام. أنت وحدك الذي تعرفت عليّ. ومن جهة أخرى. فإنني أشعر بالضجر من سمو المقام. ثم إنني أظن مسروراً أن شاعراً رديئاً ما سوف يلتقطها ويعتمرها بوقاحة. أن تجعل إنساناً سعيداً، يا للمتعة! خاصة إذا كان سعيداً من شأنه إضحاكي! فكر في X أو في Z! واعجباً! كم سيكون ذلك مضحكاً!

■ ■ ■

XLVII
الآنسة مِشْرَطْ

حالما وصلت إلى آخر الضاحية، تحت أضواء الغاز، أحسست بذراع تنساب برقة تحت ذراعي، وسمعت صوتاً قال لي في أذني: «هل أنت طبيب، سيدي؟».

التفت؛ كانت فتاة فارعة، قوية البنية، ذات عينين مفتوحتين عن آخرهما، ماكياجها خفيف، وشعرها يطير في الهواء مع شرائط قلنسوتها.

«لا؛ لست طبيباً. دعيني أمر. - أوه! بلى! أنت طبيب. إنني أرى ذلك بوضوح. تعال إلى بيتي. سوف ترضى عني تماماً، تعال! - لاشك أنني سوف أذهب لأراكِ. ولكن فيما بعد، بعد «الطبيب، اللعنة!... قالت وهي ما تزال متشبثة بذراعي، ومنفجرة في الضحك: آه! آه! أنت طبيب فكه، عرفت كثيرين من هذا النوع. تعال».

أحب اللغز بهوس، إذ يراودني الأمل دائماً في حله. ومن ثم فقد تركت نفسي لتجرني هذه الرفيقة، أو بالأحرى هذه الأحجية غير المتوقعة.

سأهمل وصف الكوخ، بالامكان أن نجده عند كثيرين من الشعراء الفرنسيين القدماء المشاهير. تبقى جزئية لم يرصدها رينييه: كان بورتريهان أو ثلاثة بورتريهات لأطباء مشاهير معلقة على الجدران.

يا للتدليل الذي كان من نصيبي! نار عظيمة، نبيذ قوي، سيجارات. قالت لي المخلوقة المضحكة وهي تقدم لي هذه الأشياء الجميلة وتشعل هي نفسها سيجاراً: «تصرف كما لو كنت في بيتك، صديقي، كن على راحتك. هذا سوف يذكرك بالمستشفى وبأزمنة الشباب الجميلة. ـ آه ما هذا! من أين إذاً جاءتك هذه الشعرات البيضاء؟ أنت لم تكن هكذا، منذ وقت غير بعيد، عندما كنت طبيباً مساعداً ل ل... أذكر أنك أنت الذي كنت تساعده في العمليات الخطيرة. كان إنساناً يحب القطع والبضع والقص! أنت الذي كنت تناوله الأدوات والأسلاك والاسفنجات. ـ وعندما كانت العملية تنتهي، كان يقول بفخر، وهو ينظر إلى ساعته: «خمس دقائق أيها السادة!» ـ أوه! أنا أذهب إلى كل مكان. وأعرف جيداً هؤلاء السادة».

بعد ذلك بلحظات، استأنفت لازمتها وخاطبتني وهي ترفع الكلفة: «أنت طبيب، أليس كذلك، يا قطتي؟».

هذه اللازمة غير المفهومة جعلتني أقفز وأصيح غاضباً: لا!

ـ إذاً فأنت جراح؟

ـ لا! لا! اللهم إن لم يكن ذلك لأجل قطع رأسك! عليكِ اللعنة!

استأنفتْ: انتظر، سوف ترى.

وأخرجت من دولاب حزمة أوراق، لم تكن غير مجموعة من البورتريهات لأطباء مشاهير في ذلك الزمن، من مستنسخات موران المطبوعة على الحجر، وعلى مدار عدة سنوات كان بالامكان رؤيتها مفروشة على رصيف فولتير.

«انتظر! هل تعرف هذا؟

ـ نعم، إنه X. ثم إن الاسم مكتوب أسفل البورتريه، لكنني أعرفه شخصياً.

ـ أعرفُ ذلك جيداً! انتظر! هذا Z، الذي كان يقول في محاضرته، قاصداً X: ذلك الوحش الذي يحمل على وجهه سواد روحه!». وكل ذلك لأن الآخر لم يكن من رأيه في مسألة بعينها! كم ضحكنا على ذلك في الكلية آنذاك! أتذكر ذلك؟ انتظر، هذا ك، الذي كان يبلغ الحكومة عن المتمردين الذين كان يعتني بهم في مستشفاه. كان ذلك زمن التمردات. كيف أمكن لإنسان جد جميل كهذا أن يكون عديم الرحمة إلى هذا الحد؟ الآن هذا W، طبيب انجليزي شهير؛ وصلت إليه خلال زيارته لباريس. إنه يشبه آنسة، أليس كذلك؟».

وإذ لمستُ رزمة محزومة، موضوعة أيضاً على المنضدة

الصغيرة، قالت: «انظر قليلاً؛ تلك رزمة الأطباء المساعدين، وهذه الرزمة رزمة الأطباء الخارجيين».

ونشرت على شكل مروحي مجموعة كبيرة من الصور الفوتوغرافية التي تمثل سحنات أكثر شباباً بكثير.

«عندما نلتقي المرة القادمة، سوف تعطيني بورتريهك، أليس كذلك، يا عزيزي؟

قلت، متابعاً بدوري، أنا أيضاً، الفكرة التي تسلطت عليّ: ولكن، لماذا تعتقدين أنني طبيب؟

ـ هذا لأنك جد لطيف وجد جميل بالنسبة للنساء!

قلت لنفسي: منطق غريب!

ـ أوه! إنني قلما أخطئ في ذلك؛ وقد عرفت من هؤلاء عدداً كبيراً. إنني أحب كثيراً هؤلاء السادة الذين، بالرغم من أنني لست مريضة، أذهب أحياناً لرؤيتهم، لمجرد رؤيتهم لا غير. بينهم من يقولون لي ببرود: «أنتِ لست مريضة بالمرة!». إلاّ أن بينهم آخرين يفهمونني، لأنني أتصنع لهم.

ـ وعندما لا يفهمونك...؟

ـ أجل، أجل! بما أنني أزعجهم بلا طائل، فإنني أترك عشرة فرنكات على المدفأة. ـ يا لروعة ويا لعذوبة أولئك الرجال! ـ اكتشفت في مستشفى الرأفة طبيباً مساعداً صغيراً، جميلاً كملاك، ولطيفاً! ويعمل، الصبي المسكين! قال رفاقه

لي إنه لا يملك قرشاً، لأن أبويه فقيران لا يمكنهما إرسال شيء إليه. هذا منحني الثقة. فأنا، على أية حال، امرأة جد جميلة، وإن كنت صغيرة جداً. قلت له: «تعال لرؤيتي، تعال لرؤيتي كثيراً. ومعي، لا تزعج نفسك؛ إنني لست بحاجة إلى المال». لكنك تدرك أنني جعلته يفهم ذلك بوفرة من الأساليب؛ لم أقل له ذلك بفظاظة؛ فقد كنت جد خائفة من جرح كبريائه، هذا الصبي العزيز! - حسناً! هل تتصور أنني قد راودتني رغبة غريبة لا أجرؤ على قولها له؟ - كنت أرغب في أن يأتي لرؤيتي ومعه حقيبة أجهزته وروبه بل وعلى روبه قليل من الدماء!».

قالت ذلك بصراحة تامة، مثلما يقول رجل حساس لممثلة يحبها: «أود أن أراك مرتدية الفستان الذي ارتديته في ذلك الدور الشهير الذي أبدعته».

أما أنا فقد استأنفت مصراً: «أيمكنك أن تتذكري الفترة والمناسبة اللتين نشأ فيهما لديك هذا الولع الخاص جداً؟».

حاولتُ بصعوبة أن أجعلها تفهمني؛ وأخيراً نجحتُ في ذلك. لكنها أجابتني عندئذ بملمح جد حزين بل، بقدر ما أتذكر، محولةً عينيها: «لا أعرف... لا أذكر!».

أية غرائب لا يجدها المرء في مدينة كبرى، عندما يتسنى له التجول والنظر؟ الحياة المزدحمة بوحوش بريئة. - مولاي، إلهي! أنت، الخالق، أنت، السيد؛ أنت الذي صنعت الشريعة

والحرية؛ أنت، الملك الذي يدع الأمور لمصيرها، أنت، القاضي الذي يعفو؛ أنت المليء بالبواعث والأسباب، والذى ربما تكون قد زرعت في روحى مذاق الرعب لكي تحول قلبي، كشفاء بعد حادث مفاجئ؛ مولاي، كن رحيماً، كن رحيماً بالمجانين والمجنونات! أيها الخالق! هل يمكن أن توجد وحوش أمام ناظريّ ذلك الذي يعرف وحده سبب وجودها وكيف وجدت وكيف كان يمكن ألاّ توجد؟

■ ■ ■

XLVIII

في أي مكان خارج العالم

هذه الحياة مصحة حيث كل مريض مسكون بالرغبة في تغيير فراشه. فهذا يود أن يكابد أمام المدفأة، وذاك يعتقد أنه سوف يشفى بجانب النافذة.

يبدو لي أنني سوف أكون على ما يرام دائماً في المكان الذي لست فيه، ومسألة الانتقال هذه مسألة أناقشها بلا توقف مع نفسي.

«قولي لي يا نفسي، أيتها النفس البائسة المرتعشة من البرد، ما رأيك في السكن في لشبونة؟ لابد أن الجو هناك حار، وأنك سوف تنتعشين كعظاية. تلك المدينة على حافة الماء؛ يقال إنها مبنية من الرخام، وإن الناس هناك يكرهون النبات كراهية عظيمة، بحيث إنهم يقتلعون كل الأشجار. هذا مشهد يناسب مزاجكِ؛ مشهد مصنوع من الضوء والمعدن، والسائل الذي يعكسهما!».

نفسي لا ترد.

«مادمت تحبين السكينة حباً جماً، مع مشهد الحركة، أتريدين المجيء للسكن في هولندة، تلك الأرض المطوَّبة؟ قد

تتسلين في ذلك البلد الذي غالباً ما أعجبت بصورته في المتاحف. ما رأيك في روتردام، أنت يا من تحبين غابات الصواري، والسفن الراسية أسفل البيوت؟».

نفسي تظل صامتة.

«قد تروق لكِ باتافيا أكثر؟ كما أننا سوف نجد هناك روح أوروبا مقترنة بالجمال الاستوائي».

لا كلمة. - أتكون نفسي قد ماتت؟

«هل وصلتِ إذاً إلى هذه الدرجة من الفتور بحيث إنك لا تنشرحين إلاّ في مرضك؟ إذا كان الأمر كذلك، فلنهرب إلى البلاد التي تشبه الموت. - سأتدبر أمرنا، أيتها النفس البائسة! سأعد حقائبنا للسفر إلى تورنيا. لنذهب إلى أبعد من ذلك بكثير، إلى الطرف الأقصى للبلطيق؛ إلى مكان أبعد بكثير عن الحياة، إذا كان ذلك ممكناً؛ لنستقر في القطب. هناك لا تقترب الشمس من الأرض إلا بانحناءة، والتعاقبات البطيئة للضوء والليل تمحو التنوع وتكثف الرتابة، نصف العدم ذاك. هناك، سوف يكون بوسعنا أخذ حمامات دياجير طويلة، في حين أن أشعة الشفق القطبية الشمالية، لأجل تسليتنا، سوف ترسل لنا من وقت إلى آخر حزماتها الوردية، كانعكاسات للعبة جحيم نارية!».

أخيراً، تنفجر نفسي وتناديني بحكمة: «لا يهم أين! لا يهم أين! شرط أن يكون خارج هذا العالم!».

XLIX

فلنصرع الفقراء!

على مدار خمسة عشر يوماً كنت معتكفاً في غرفتي، وكنت محاطاً بكتب رائجة في ذلك الزمن (قبل ستة عشر أو سبعة عشر عاماً)، أقصد الكتب التي تعالج فن جعل الشعوب سعيدة وحكيمة وثرية، في أربع وعشرين ساعة. ومن ثم فقد تمثلت، - أقصد التهمت، - كل هذيانات جميع متعهدي الهناء العام هؤلاء، - أولئك الذين ينصحون جميع الفقراء بأن يكونوا عبيداً، وأولئك الذين يقنعونهم بأنهم جميعهم ملوك مخلوعون. - ولن يندهش أحد من أنني كنت آنذاك في حالة ذهنية تتاخم الدوار أو الغباء.

لكنني بدا لي أنني استشعرتُ، منزويةً في أعماق ذهني، الجرثومة المبهمة لفكرة أرقى من جميع صيغ المرأة الطيبة التي تصفحت قاموسها مؤخراً. لكنها لم تكن غير فكرة فكرة، لم تكن غير شيء مبهم بشكل لا نهائي.

وخرجت عطشاناً عطشاً عظيماً. لأن التذوق المهووس لقراءات رديئة يولد حاجة مساوية إلى الهواء العظيم وإلى المنعشات.

وبينما كنت أهم بدخول حانة، مد لي شحاذ قبعته، بنظرة من تلك النظرات التي لا تنسى والتي تقلب العروش، لو حركت الروحُ المادةَ، ولو أنضجت عين منوم مغناطيسي عناقيد العنب.

وفي الوقت نفسه، سمعت صوتاً يهمس في أذني، صوتاً أعرفه جيداً؛ كان صوت ملاك طيب أو شيطان طيب، يرافقني أينما ذهبت. ومادام سقراط كان له شيطانه الطيب، فلماذا لا يكون لي ملاكي الطيب، ولماذا لا يكون من نصيبي، كسقراط، أن أحصل على شهادة جنوني، موقعةً من البارع ليلى ومن النبيه بيارجيه؟

هناك فرق بين شيطان سقراط وشيطاني، هو أن شيطان سقراط لا يتجلى له إلا لكي ينهى ويحذر ويمنع، وأن شيطاني ينفر من النصح والايحاء والاقناع. سقراط البائس ذاك لم يكن له غير شيطان ناهٍ؛ أما شيطاني فهو محرض عظيم، شيطاني هو شيطان فعل، أو شيطان قتال.

والحال أن صوته قد همس لي بما يلي: «ند الآخر هو من يثبت ذلك لاسواه، والجدير بالحرية هو من ينجح في انتزاعها لا سواه».

وعلى الفور، هجمت على شحاذي. وبلطمة واحدة، أقفلت له عيناً أصبحت، في ثانية، متورمة ككرة. وكسرت أحد

أظافري في تحطيم سنين له، وبما أنني لم أستشعر أنني قوي بما يكفي، إذ ولدت رقيقاً ولم أمارس الملاكمة إلا قليلاً، فإنني لكي أصرع هذا العجوز بسرعة، أمسكته بيد من ياقة ملبسه وقبضت باليد الأخرى على عنقه، وأخذت أضرب رأسه بحائط بكل ما أوتيت من قوة. ويجب أن أعترف بأنني قد استبقت ذلك بتفتيش الجوار بنظرة خاطفة وبأنني تأكدت من أنني، في هذه الضاحية المهجورة، موجود، لوقت طويل بما يكفي، خارج مدى وصول أي مرشد من مرشدي الشرطة.

بركلة موجهة إلى الظهر، قوية بما يكفي لتحطيم لوحي الكتفين، نجحت بعد ذلك في طرح هذا الستيني المنهك أرضاً، ثم انتزعت فرع شجرة كبيراً كان مائلاً إلى الأرض وانهلت عليه ضرباً بالقوة العنيدة للطهاة الذين يريدون ترقيق قطعة بفتيك.

وفجأة، - يا للمعجزة! يا لفرحة الفيلسوف الذي يتحقق من امتياز نظريته! - رأيت هذا الهيكل العظمى العجوز ينقلب وينهض بقوة لم أتخيلها البتة في آلة معطلة بشكل جد فريد، وبنظرة كراهية بدت لي بشير خير، هجم اللص المتهدم عليّ وورم عيني وكسر لي أربعة أسنان، و، بفرع الشجرة نفسه، انهال عليّ ضرباً بالغ العنف. - ومن ثم فإنني بمداواتي القوية قد وهبته الكبرياء والحياة.

عندئذ أشرت إليه إشارات كثيرة لكي أفهمه أنني أعتبر المناقشة منتهية، وقلت له وأنا أنهض بارتياح سفسطائي رواقي: «سيدي، أنت ند لي! أرجو أن تشرفني بأن تتقاسم معي مالي؛ وتذكر، إن كنت محباً للبشرية بالفعل، أنه ينبغي أن تطبق على جميع إخوتك، عندما يطلبون منك صدقة، النظرية التي تألمتُ في اختبارها على ظهرك».

فأقسم لي أنه قد فهم نظريتي، وأنه سوف يلتزم بنصائحي.

■ ■ ■

L

الكلاب الطيبة

إلى السيد جوزيف ستيفنس

لم أخجل قط، حتى أمام كتاب عصري الشبان، من إعجابي ببيفون؛ لكن ما سوف أناشده اليوم لمساعدتي ليس روح هذا المصور للطبيعة الباذخة. لا.

عن طيب خاطر أكثر بكثير سوف أخاطب شتيرن، وسوف أقول له: «اهبط من السماء، أو اصعد في اتجاهي الساحات الايليزية، لكي تلهمني لأجل الكلاب الطيبة، الكلاب الفقيرة، أغنية تليق بك، أيها المهرج العاطفي، المهرج الذي لا مثيل له! عد مفرشحاً على هذا الحمار الشهير الذي يصاحبك دائماً في ذاكرة الأجيال الآتية؛ ولا ينسين هذا الحمار خاصة أن يحمل، متدلياً من بين شفتيه برقة، وسامه الخالد!».

تقهقري ياربة الشعر الأكاديمية! لست بحاجة إلى هذه المتزمتة العجوز. أناشد ربة الشعر المألوفة، المدينية، الحية، كي تساعدني في الغناء للكلاب الطيبة، الكلاب الفقيرة، الكلاب الملوثة بالوحل، تلك التي يتحاشاها الجميع، كما لو

كانت مصابة بالطاعون وموبوءة بالقمل، فيما عدا الفقير الذي تشاركه قدره والشاعر الذي ينظر إليها بعين أخوية.

أف للكلب المتجمل، لهذا الحيوان السمين، الدانمركي أو الكينج تشارلز أو الكارلان أو الجريدان، جد المفتون بنفسه بحيث يثب برعونة بين ساقي أو على ركبتي زائر، كما لو كان واثقاً من أنه سوف يكون مثار إعجاب، المشاغب كطفل، الغبي كغادة ماجنة، الفظ والصفيق أحياناً كخادم! أف خاصة لتلك الثعابين ذات القوائم الأربع، المرتعدة والكسولة، والتي تسمى بالكلاب السلوقية، التي لا تحوز حتى في خطمها المستدق ما يكفي من حاسة الشم، لكي تقتفي أثر صديق، ولا تحوز في رأسها المبطط ما يكفي من الذكاء لكي تلعب الدومينو!

إلى وجر الكلاب، جميع هذه الطفيليات المملة!

فلترجع إلى وجرها الحريري المنجد! أنا أغني للكلب الملوث بالوحل، الكلب الفقير، الكلب الذي لا مأوى له، الكلب المتسكع، الكلب المهرج، الكلب الذي غريزته، كغريزة الفقير والبوهيمي والبهلوان، تبدع توجيهها الضرورة، تلك الأم بالغة الطيبة، تلك الحامية الحقيقية للعقول!

أغني للكلاب المشؤومة، أكانت تلك التي تهيم على وجوهها، وحيدة، في الممرات المتعرجة في المدن الكبرى، أم تلك التي قالت للإنسان المخذول، بعيون مومئة وروحية: «خذني معك، ومن بؤسينا، قد نصنع نوعاً من السعادة!».

«أين تذهب الكلاب؟». قديماً تساءل نيستور روكبلان في مقال لاشك أنه قد نسيه، ومازلت أنا وحدي، وربما سانت بوف، نذكره إلى اليوم.

تتساءلون، أيها الناس قليلو الانتباه، أين تذهب الكلاب؟ إنها تذهب إلى شغلها.

مواعيد شغل، مواعيد حب. عبر الضبابة، عبر الثلج، عبر الوحل، تحت القيظ اللاسع، تحت المطر المنهمر، تذهب، تجيء، تنط، تمر تحت العربات، مستثارة بالبراغيث أو بالهوى، بالحاجة أو بالواجب، وشأنها شأننا، تستيقظ مبكراً وتبحث عن عيشها أو تجري إلى مسراتها.

بعضها يرقد في أطلال المشارف ويجيء، كل صباح، في ساعة محددة، طالباً هبة على باب مطبخ القصر الملكي؛ وبعضها الآخر يجتاز، في جماعات، أكثر من خمسة فراسخ، لاقتسام الوجبة التي أعدها لهم إحسان بعض العذارى الستينيات اللاتي منحن قلوبهن الخالية للحيوانات لأن الرجال الأغبياء لا يريدونها بعد.

بعض ثالث، كزنوج فارين، يغادرون حيهم في أيام معينة، متيمين حباً، ويجيئون إلى المدينة لكي يتقافزوا على مدار ساعة حول كلبة جميلة، مهملة إلى حد ما في زينتها، لكنها فخورة وممتنة.

وكلهم جد منضبطين، دون مفكرات ودون مذكرات ودون حقائب.

هل تعرفون بلجيكا الكسولة، وهل أعجبتم مثلي بجميع تلك الكلاب النشيطة التي تجر عربة الجزار أو اللبان أو الخباز والتي تشهد، بنباحاتها الظافرة، على الفرحة المتغطرسة التي تستشعرها في منافسة الخيول؟

هاكم اثنان منها ينتميان إلى مرتبة أكثر تمدناً بكثير! اسمحوا لي أن أدخلكم إلى غرفة مهرج غائب. سرير، من الخشب المزخرف، دون ستائر، أغطية غير مرتبة وموبوءة بالبق، كرسيان من القش، مقلاة من حديد الزهر، آلة أو آلتان موسيقيتان لا تصلحان للعزف. أوه! يا للأثاث البائس! ولكن انظروا، أرجوكم، إلى هاتين الشخصيتين الذكيتين اللتين ترتديان ثياباً مهلهلة وفخمة في آن واحد، وتلبسان قبعة كقبعة التروبادور أو العسكريين، وتراقبان، بانتباه سحرة، العمل الذي لا اسم له، والذي يعد على المقلاة المتأججة، وتنتصب في وسطه مغرفة طويلة، كواحدة من تلك الساريات الهوائية التي تعلن إنجاز البناء.

أليس صحيحاً أن ممثلين بهذه الدرجة من الحماس لا ينطلقون إلى عملهم دون أن يملأوا معدتهم بحساء قوي ومتين؟ وألن تغفروا قدراً من الشهوة الحسية عند تلك الشياطين البائسة

التي يتعين عليها أن تواجه على مدار اليوم لامبالاة الجمهور وظلم مخرج يستأثر لنفسه بنصيب الأسد ويتناول بمفرده حساء أكثر من حساء أربعة ممثلين؟

كم من مرة تأملت، مبتسماً ومشفقاً، جميع هؤلاء الفلاسفة ذوي القوائم الأربع، العبيد ليني الجانب، الخاضعين أو المخلصين، الذين يمكن للمعجم الجمهوري أن يصفهم هم أيضاً بشبه الرسميين، لو كان لدى الجمهورية، جد المنشغلة بسعادة البشر، ما يكفي من الوقت لمراعاة كرامة الكلاب!

وكم من مرة خطر ببالي أنه ربما كان هناك في مكان ما (من يدري، على أية حال؟)، على سبيل المكافأة لكل هذه الشجاعة، لكل هذا الصبر والكدح، فردوس خاص للكلاب الطيبة، الكلاب الفقيرة، الكلاب الملوثة بالوحل والمهجورة. يؤكد سويدينبورج أن هناك فردوساً للأتراك وفردوساً للهولنديين!

رعاة فيرجيل وثيوكريتوس كانوا ينتظرون على سبيل المكافأة لأغانيهم المتناوبة، جبناً سائغاً، أو نايا من صنع صانع أفضل أو عنزة ضخمة الضروع. الشاعر الذي غنى للكلاب الفقيرة حصل من باب المكافأة على صدار جميل، لونه، الثري والحائل في آن واحد، يذكر بشموس الخريف وبجمال النساء الناضجات وبأصياف السان مارتان.

لن ينسى أحد من أولئك الذين كانوا حاضرين في حانة شارع فيلا ـ هيرموزا بأي نزق تجرد الرسام من صداره لأجل الشاعر، إذ أحسن فهم أن الغناء للكلاب الفقيرة شيء مستحب ومشكور.

في الأزمنة الجميلة، كان مستبد إيطالي عظيم يهدي آريتان الرائع إما خنجراً مطعماً بالأحجار الكريمة أو معطفاً للحفلات الملكية، في مقابل سونيت نفيسة أو قصيدة هجائية فذة.

وفي جميع المرات التي يرتدي فيها الشاعر صدار الرسام، يجد نفسه مجبراً على التفكير في الكلاب الطيبة، في الكلاب الفلاسفة، في أصياف السان مارتان وفي جمال النساء الناضجات جداً.

■ ■ ■

خاتمة

مرتاح القلب، صعدتُ على الجبل
حيث يمكن للمرء تأمل المدينة في اتساعها،
المستشفى، الماخور، المطهر، الجحيم، السجن،

حيث كل فاحشة تزدهر كزهرة.
تعرفُ جيداً، أوه أيها الشيطان، يا راعي عذابي،
أنني لا أذهب إلى هناك لأذرف دمعاً غير مجد؛

وإنما كخليل داعر عجوز لعشيقة عجوز،
أريد أن أثمل بالعاهرة الفاحشة
التي لا تكف فتنتها الجهنمية عن تجديد شبابي.

فلتواصلي النوم في غلالات الصباح،
ثقيلة، معتمة، مزكومة، أو فلتتبختري
في غلالات المساء المزركشة بالذهب الخالص،

أحبك، أوه أيتها العاصمة الشائنة! أيتها المومسات
ويا قطاع الطرق، غالباً ما تقدمون مسرات
لا يفهمها المبتذلون الدنيويون.

■ ■ ■

الفهرس

هذا الكتاب

أغني للكلاب المشؤومة، أكانت تلك التي تهيم على وجوهها، وحيدة، في الممرات المتعرجة في المدن الكبرى، أم تلك التي قالت للإنسان المخذول، بعيون مومئة وروحية: «خذني معك، ومن بؤسينا، قد نصنع نوعاً من السعادة!».

Liberté · Égalité · Fraternité
RÉPUBLIQUE FRANÇAISE
AMBASSADE DE FRANCE EN RÉPUBLIQUE ARABE D'ÉGYPTE
CFCC